عباس على عبود

قبسٌ مِنْ مدارات الحنين
رواية

□□□

رحيق الضفاف
الكتاب الثالث: قبسٌ من مدارات الحنين

■■■

كانون الثاني/يناير 2010

الإهــداء:

إلى أمـي

عند الظهيرة كانت مريم بدر الدين واقفةً تحت ظِل النخلة. صدحت بوجدانها ألحانٌ قديمة. تطلّعت إلى أعلى ثمّ قالت في نفسها: ((أنا والنخلة صنوان)).. ولم تلبثْ أنْ سرت بخيالها إلى أفقٍ غامض. صوتٌ ناعمٌ يجوس بصدرها وهي تصغي على حافة الانتباه، تكاد أن تلمح المشهد الفريد: نهرٌ وغلمانٌ وصبايا. شموسٌ غاربةٌ، وسحبٌ عابقةٌ بالنشيد.. تصغي فتنسرب المعاني إلى الفؤاد. أكوانٌ تولد مِنْ رحم العشق، مِنْ المحبة الراعشة في سويداء الاحتمال، مِنْ شهقة الوصال. شمسٌ على حافة الندى، وطيورٌ سابحةٌ إلى المرافئ المجيدة. مئذنةٌ وشجيراتٌ في حلبة الرقص، بينما المغني على الضفاف يغازل أوتاره، والأنغام صاهلةٌ في نسقٍ جديد:

يا نجمةَ الصباح
يا مليكةَ الضفاف
يا زهرةً على حواشي القلب
تنثرُ عطرها الفريد
ثمّ تدنو
لتشهد النخلةَ الهيفاءَ
بجذعها تميد
ثمّ تدنو وتعيد
لتشهد النخلة الهيفاء
ترقصُ في دياجير الخلود
ثمّ تدنو وتعيد
والنخلةُ الهيفاء
ترفلُ في ثياب العرس

ترنو للصبايا
ثمَّ تصغي لهمسِ العشقِ
ينبضُ في الجريد
النخلةُ الهيفاءُ تنمو
من رفيفِ الحلمِ
تنمو..
قبسٌ توهَّجَ
شمسٌ تسبِّحُ
والضياءُ يرتِّلُ الشوقَ العنيد

على قوس الرجاء أصابتها سهام الحيرة، فقالت في نفسها: ((هذه النخلةُ تنتمي إلينا، وننتمي إليها، يختزن جريدها وجذعها المديد، ألحان طفولتنا وأحلامنا الصغيرة. تكادُ تلمحُ على جريدها ظلال دمعاتٍ سكبتها في وداع مَنْ رحلوا، وأخرى تبرعمتْ والصباحُ ناهضٌ بأملٍ جديد))..

على حافة الحلم تبدو المعاني ثمَّ تنبهم. يصعد عبير الثمر مِنْ الجذور حين تلثم التراب. هي جارتهم ورفيقة أمهاتهم. أرضعتهم مِنْ نسق الأمومة، ومِنْ حنانها الفطري. تذكرهم ويذكرونها.. وطنٌ ولغةٌ، ورحيلٌ إلى الطفولة المباركة. في الحلم، وفي يقظة الأسحار، ظلَّتْ سعفاتها توشوشُ مع النسماتِ الهيِّنة، والطلعُ عابقٌ بالحنين.. عرفتهم جميعاً، مَنْ رحلوا إلى عوالم الخلود، وصبيةً رشقوها بالحجارةِ فصمتت لبرهةٍ، ثمَّ وشوشتْ سعفاتُها بنغمٍ فريد..

أشواقٌ هيَّنة داعبتْ صدرها فالتفت إلى النهر. كان في الطريق إليها صبيٌّ وسيم. صافحها فسرتْ إليها مشاعر مبهمة. حين رمقته بنظرةٍ متسائلة قال لها: عاشة أم سكْسكْ في انتظارك. ثمَّ أضاف: عمي ود العاقب مريض.. أومأت إيجاباً ثمَّ طلبت منه انتظارها. دخلتْ الدار وحين أطلتْ بعد دقائق كان الصبي يرنو إليها وبعينيه بريقٌ مراوغ. سارتْ وعلى يمينها حقيبةٌ صغيرة، يتبعها الصبي صامتاً. وقالت في نفسها: ((هذا الصبي الوسيم ما باله!؟ لم تكن نظراته عادية، ولا كفه حين صافحني!!))..قال الصبي برنةٍ واثقة: أهل البلدة جميعهم يشكرونك، ويقولون إنكِ إنسان طيِّب لا تتأخري في الوصول إلى المرضى في بيوتهم. إنَّهم جميعاً يحبونكِ.. ثمَّ صمت فجأةً. وحين نظرتْ إليه كان وجهه ينمُّ عن ألمٍ دفين. سألته بصوتٍ ماكر: وأنتَ معهم؟ أنا أولهم.. قالها ثم هرب بنظراته بعيداً. ومرةً أخرى قرأتْ على جبينه ملامح ألمٍ دفين.. وقالت في نفسها: ((يا له مِنْ مسكين، لعله صبيٌّ عاشق)).. ابتسمتْ ولمعتْ بدماغها شرارةُ السؤال: هل الحزن والعشق صنوان!؟ اتسقت خطواتهما على إيقاع أطيافٍ تراود كليهما. كان الصبي يسير

بجانبها محتشداً بالشجن، تمور بوجدانه أسئلة النحيب. رمقها بنظرةٍ ولهى وقال في نفسه: ((نعم عشقتها منذ الطفولة، حين وضعت أصابعها الرقيقة على صدري ثمَّ أخبرت أمي بأنني مصابٌ بنزلة بردٍ، وأوصتها أنْ أشربَ السوائل الدافئة.. ولكني شفيت بلمستها. في عطلاتها القصيرة، كنتُ ألمحها تعبر أمام بيتنا لعيادة المرضى في بيوتهم. ألمحها وأتبعها بنظراتي وأشواقي، تجتاحني قشعريرةُ السؤال: هل تعرفُ ما يدور بصدري!؟ ربما.. نعم شفتني في ذلك النهار بلمسةٍ مِنْ أصابعها الساحرة. شُفِيْتُ مِنْ نزلة البرد وأصابتني حمى الهوى والأشواق))..

حين طرقتْ مريم بدر الدين الباب كانت عاشة أم سُكْسُكْ في الانتظار. استقبلتهما بالترحاب ودعتهما للدخول. فحصت الطبيبة المريض ثمَّ وضعت على الطاولة أقراصاً مُسكِّنة. طمأنت الزوجة ثمَّ قالت: لا بد مِنْ السفر لمقابلة الطبيب المختص. تنحنح ود العاقب ثمَّ قال بصوتٍ ضعيف إنَّه بخير، شكر الطبيبة ودعا لها بالتوفيق، وحمَّلها السلام إلى أمها وأبيها. قبل أنْ تغادر مريم بدر الدين أخبرتْ عاشة أم سُكْسُكْ إنَّ محاولاتها لم تثمر مع المنظمات العالمية المعنية بشئون الأسرى. ثمَّ أضافتْ: علينا الانتظار فربما نظفر بمعلومةٍ عن ابنك الأسير في مجاهل الغابات. كان الصبي يتابع حديثهما بعيونٍ ساهمة، وللمرة الثالثة قرأتْ مريم بدر الدين على جبينه ملامح ألمٍ دفين. عاشة أم سُكْسُكْ ودعت الطبيبة ولسانها يلهجُ بالشكر والعرفان. مسحتْ على رأس الصبي قائلةً: لا تنقطع عن زيارتنا..

عاشة أم سُكْسُكْ أمضتْ سحابة يومها على أسنة القلق تناوشها سهامُ الظنون. على مرجل الأسى تكابد الانتظار، سادرةً في متاهات الحنين. أطياف ابنها محجوب السر ما انفكَّت تراودها، في ساعات الصباح الباكر، وفي الدياجي الماطرة.. يلمعُ بخيالها شرارُ الأسئلة: هل ما زال أسيراً أم أنَّ الأقدار منحته فرصة الهروب مِنْ القيود!؟ هل ضلَّ الطريق إلى البلدة، أم أنَّه آثر النزوح إلى ديارٍ غريبة؟ وهل نسي فؤاد أمه الملهوف؟

قبيل المغيبِ تنحنح ود العاقب ثمَّ قال لزوجته: شفتني البنت المبروكة. طيبة قلبها تيسِّرُ تعاملها مع المرضى وتساعدهم على الشفاء.. ثمَّ طلب مِنْ زوجته أنْ تناوله الإبريق ليتوضأ، ثمَّ توكأ على عكازه إلى المسجد لأداء صلاة المغرب، ثمَّ تلاوة القرآن والعودة بعد صلاة العشاء. قالت له: لِمَ لا تصلي في الدار؟ ابتسم وقال: صلاة الجماعة خيرٌ من صلاة الفرد..

ود العاقب أصبح نحيلاً، واهن العظم، يتوكأ على عكاز في مشاويره اليومية إلى المسجد، لكن ذهنه ظلَّ حاضراً. وكان يقول لزوجته إنَّه لولاها لما استطاع العيش وحيداً. وفي أحد الأعياد حضر جميع أبنائه فاستشارهم

وطلب موافقتهم، ثمَّ قال لها إنَّ أبناءه وافقوا على تسجيل المنزل باسمها، فهي الأجدر به، وهم لا يحتاجون إليه. في ذلك النهار كادتْ أن ترفض لكنها آثرتْ الصمت احتراماً لرغبته. وقالت في نفسها: ((إنَّه يُثَمِن وفائي وإخلاصي، لم يقصر معي ولم تتبدل مشاعره))..

عندما غادر ود العاقب الدار إلى المسجد، ظعنت عاشة أم سُكْسُكْ إلى طفولتها الباكرة: كان اسمها يعني الظلام في لغة قبيلتها، لأنها وُلِدَتْ بين طيات العتمة والدجى كادَ أنْ ينهزم، ليتنفس الصباح، ويُولدُ قبسٌ جديد. وُلِدَتْ ذات فجرٍ عنيد.. نُقِشَتْ خطواتها على الرمال، فوق هامة الشجر، على مسالك النجوم.. إنَّه القدر المرسوم، على اللوح القديم، في مجاهل السديم.

في الطفولة سارت خطواتها على دروب الرمل. كانت تأوي إلى تبلديةٍ عملاقة وسط صخرتين والزمانُ نضير. اختزنت الفروع والجذور أغاني الطفولة وأهازيج الصبا. تأوي إلى الشجرة الشامخة بعد أنْ تقطع عدة أشواطٍ مع أمها لجلب الماء مِنْ نبعٍ تحت سطح الرمال، يجود بالماء أيام الخريف. هذه التبلدية العملاقة هل ما تزال شامخةً، عميقة الخضرة، ندية الظلال؟

ذات ضحى سارت على دروب المياه المنحدرة مِنْ قمم الجبال. كانت الأشجار كثيفة الخضرة، بعضها يابسٌ نخرت جذوعه الأيام بعد أنْ عصفت بأوراقه. شجيراتٌ في عنفوان الصبا وأخرى ما تزال طريةً تغرز جذورها في الأرض الصخرية الخصبة. كان الغمام يظلل الجبال وهي تَخُبُ السير وراء أمها التي تحمل زكائب السعف. كان يوم السبت حيث يتجمَّع سكان الجبال للتسوق. يأتي التجار مِنْ الحواضر القريبة والبعيدة، ينصبون الرواكيب ويعرضون الذرة الرفيعة، والصابون والزيوت والبصل والسكر. وتحت ظلال الأشجار يعرض أهل الجبال العناقريب والحبال، والسعف وعسل النحل والسمن، وأخشابَ عطريةً صغيرة الحجم تُبَاعُ في جوالات الخيش. كان السوق عند منتصف النهار يموج بالحركة. حول أقمشةٍ مزركشةٍ بالألوان الخضراء والحمراء، تحلَّقتْ فتياتٌ أمبررو وعلى معاصمهن وسيقانهن أساور الفضة والنحاس.. كنَّ يساومن البائع لشراء قطع ملونة. وبجانب راكوبة الأقمشة ماكينة خياطةٍ والخياطُ منهمكٌ في عمله. في طرف السوق دكانٌ مِنْ الحجر يملكه تاجرٌ يجلبُ البضائع مِنْ المدن ويبيعها بالجملة لصغار التجار الذين ينحدرون إلى السوق يوم السبت مِنْ كلِّ أسبوع. كان التاجر أسمر اللون يقف جانباً في جلبابٍ أبيض، بينما العاملون معه منهمكون في البيع والمساومة. باعت الأم بضاعتها واشترت ملوةً مِنْ الذرة. اختلست الصبية لحظةً وابتعدت عن أمها خطوات، وقفت أمام بائعٍ يعرضُ المرايا والأمشاط وعقود الخرز الملون. لطالما تمنَّتْ أنْ تمتلك عقداً مِن الخرز الأبيض والأسود.

كتمتْ رغبتها في صدرها وخيالها يغازلُ أطياف الأمل. وحينَ صعدتْ مع أمها إلى الدار، انطلقتْ إلى جدتها، وقفتْ أمامها حائرةً وكادتْ أنْ تبوح لها برغبتها في امتلاكِ عقدٍ مِنْ السُكْسُكْ، لكنها صمتت وبعينيها بريقٌ عنيد. بعد انصراف الحفيدة بدأتْ الجدةُ في التفكير والتساؤل. وكأنما انتقلت إليها مشاعر حفيدتها.. ودون مقدمات انزلقتْ ذاكرةُ الجدةِ إلى سنواتٍ بعيدة، إلى ميعة الصبا، يوم حلمت ليلاً بخيوطٍ تتدلى مِنْ سقف القطية. خيوطٌ تتناسلُ وتلتفُ حول العيدان، وأحجارٌ صغيرةٌ تتقافز أمام باب القطية. حلمتْ بطيورٍ تغردُ في سماءٍ غامضة. حلمتْ بإيقاعات الرحيل.. وحين استيقظت صباحاً هرعت خارج القطية تتأملُ سحباً رماديةً رابضةً على الأفق الشرقي، والشعاع الأحمر الأرجواني يصعد حثيثاً صوب كبد السماء. أشرقتْ الشمسُ مِنْ بين سحبٍ داكنة. وحين سرى الدفء إلى أطرافها رأت بخيالها دروباً وصخرةً وخيوطاً ملونة. شربتْ حليباً دافئاً ثمَّ انطلقتْ على الدروبِ صاعدةً إلى أعلى الجبل، كأنَّها تتبعُ نداءاً ينبضُ بين جوانحها. تجولتْ وسط الكتل الصخرية المتناثرة تحفها ظلالُ الأشجار. كانت طيورُ السمبر تحلّقُ قريباً منها. غرّدتْ قمريةٌ على الأغصان الخضراء الندية، فانبثقتْ في وعيها أحداثُ ليلةِ البارحة، الخيوطُ المتشابكة، والحجارةُ الصغيرةُ المتقافزة.. وكأنَّها تخطو على آثارٍ قديمة. دارتْ حول صخرةٍ كبيرة، ثمَّ توقفتْ أمامها تُنْصِتُ للمدى.. تسارعتْ دقات قلبها حين لمحتْ في تجويفٍ صغيرٍ حبات الخرز الأبيض والأسود. حين عادت إلى الدار ودخلت القطية، لمحت خيوطاً تتدلى مِنْ السقف، تناولتها ثمَّ نظمت عقداً مِنْ السُكْسُكْ..

أفاقتْ الجدةُ مِنْ ذكرياتها. خلعتْ عقد السُكْسُكْ مِنْ عنقها بعدما حملته لعشرات السنوات، ثمَّ نادتْ حفيدتها. وحينما وقفت الصبية بين يديها مسحت على رأسها. كانت لحظةٌ مشحونةً بالفرح والأشجان، تطاير الدمعُ بعيني الحفيدة حينَ ربطتْ الجدةُ الخيطَ المتين حول عنقها. قالت الحفيدة في نفسها: ((أنا الآن صبيةٌ جميلة))... ثمَّ تسللت مِنْ الدار إلى الصخور العالية قرب زراعتهم المحدودة. تأملتْ وجهها على مرآة صغيرة.. كان عقد السُكْسُكْ يزين نحرها، أسنانها ناصعة البياض، قويةٌ ومنتظمةٌ في جمالٍ أخاذ. أدركت حينها إنها غادرت الطفولة، استنشقت عبير الأنوثة وصدرها يتبرعم حلمتين صغيرتين.

عند الصباح تبعتْ أباها وانحدرا إلى سفح الجبل. قصد والدها منزل التاجر المشيَّد مِنْ الحجر وسط بيوت القش. في الدرب قال لها إنها ستعمل مع هذا التاجر في المنزل لتساعد زوجته في الأعمال البسيطة. وقال لها بقرتنا الوحيدة هلكت كما تعلمين، وإخوتك صغار، وعملك البسيط سيساعدنا على شراء بعض ما نحتاجه. أحنتْ الصبيةُ رأسها، داعبت حبات السُكْسُكْ على صدرها. حين دخلت مع أبيها إلى بيت التاجر داهمها الخوف. ترددتْ وزوجةُ

التاجر تدعوها للدخول إلى المطبخ. أمسكتْ بقوةٍ على كف والدها فمسح برفقٍ على شعرها وقال لها بصوتٍ خافتٍ وبلغته الأم: لا تخافي، اذهبي وإذا لم يعجبك العمل عودي إلى أمك.. طأطأتْ رأسها ومشتْ. عملتْ مع زوجة التاجر لأكثر مِنْ سنتين، ثمَّ سافرتْ مع الابن حين تزوج وارتحل شمالاً..

حين عاد ود العاقب مِنْ المسجد كانت عاشة أم سُكْسُكْ مضطجعةً على الفراش وسط الحوش. احتدمتْ بدماغها الرؤى والاحتمالات. لمعتْ بخيالها كنصلٍ جارحٍ تلك اللحظةُ الفاصلة، في ميعة الصبا، حين بدأتْ العمل في منزل التاجر. أطلقوا عليها اسماً آخر، وتعلمتْ لغةً أخرى.. وبعد سنتين سافرتْ شمالاً لخدمة زوجة ابن التاجر، ثمَّ ظعنتْ في مسالك الشقاء والآلام..

وسط الحوشِ والظلامُ يهيمن علي البلدة، راودتها أطيافُ ابنها الأسير. ناوشت القلبَ الهواجسُ والظنون. وكأنَّها لمحتْ برقاً يضيءُ. وكأنها، أبصرتْ ابنها وسطَ الأحراش، يطوِّقه الظلامُ والرصاص، فصرختْ مِنْ فؤادٍ مكلوم: يا محجوب، انتظرني..

■■■

ظلَّ محجوب السر قابعاً بين الجدران القاسية، يكابدُ الأرق. ثمة أملٍ بعيد يلوحُ على أفقٍ غامض.. قبل سنواتٍ وقع أسيراً في كمينٍ نصبه مقاتلو الغابة. وعندما كبلوه بالقيود ابتسم، ثمَّ لم يلبثْ أنْ ولولتْ بصدره الوساوس. وقال في نفسه: ((قيدٌ جديد)).. وحين اقتادوه إلى قبوٍ رطب، همَّ بالسؤال لكنهم تجاهلوا همهماته، أغلقوا الباب وانصرفوا. تركوه وحيداً يكابدُ الظنون.. كانت الجدرانُ معتمةً وضوءٌ شحيحٌ يتسللُ من كُوةٍ عالية. وحشةٌ ضاريةٌ، وصمتٌ متوجس. كاد أنْ يحصي أنفاسه، الأرضُ صلدةٌ، والدقائقُ جاثمةٌ على صدرٍ مثخنٍ بالغبنِ والذكريات. سمع نهيق حمارٍ غير بعيد فقال في نفسه: ((هل سيحضرون صباح الغد؟ وهل أستطيع الاغتسال، وربما أعطوني كوباً من الشاي!؟ هل تسري هنا قوانين معاملة الأسرى، أم أنَّنا خارج التاريخ والأعراف الدولية!؟ وكيف تعامل الحكومة الأسرى؟ لم أسمع بأنَّهم أسروا فرداً واحداً من مقاتلي الغابة؟ هل يقضون عليهم ويريحوا ويرتاحوا!؟ فلأنتظر حتى الصباح لربما تكون معاملتهم لائقة. لن أخسر شيئاً إنْ أحسنتُ الظن بهم حتى يثبت العكس. والركل والشتائم التي هطلت على جسدي وعقلي، ألا تكفي للحكم عليهم؟ أم أنَّه سلوك صغار الجنود؟ ومَنْ المسؤول!؟)).

تسللت أفكاره إلى سراديب النفس. أحداث حياته الماضية تتواتر تباعاً. بعضها يمرق كالبرق، والبعض الآخر ينكأ مكامن الأسى. كابد ليلاً عسيراً في

انتظار انبلاج الصباح. وقال في نفسه: ((هل سأقف يوماً على شاطئ البلدة، أتأمل طيوراً عائدةً إلى أوكارها عند الغروب!؟ وربما تكون معي أليل وربما أكون وحيداً.. وأمي كيف حالها مع الانتظار والترقب والأحزان))..

بعد أيامٍ من الملل الحارق اقتادوه إلى الاستجواب بعد ليلةٍ من الركل والبذاءات. قال له الضابط متهكماً: أفريقي أسود يحارب في صفوف العرب!! ثمَّ أضاف: لماذا تقاتلنا في ديارنا!؟ أحنى رأسه وقال في نفسه: ((ومن يقاتلكم، أنا أم الحكومة!؟)).. نهض الضابط وتفحص الأسير ثمَّ قال: إنَّ دولتكم ستزول، وسنقيم مكانها وطناً جديداً. محجوب السر قال في نفسه: ((غريبٌ أمر هذه البلاد، الكلُّ يدعي ملكيتها، ألا تتسع للجميع!؟))..

بدأ الاستجواب باللغة الإنجليزية وحين تعمَّد الأسير عدم الفهم قال له الضابط: ألم تدرس اللغة الإنجليزية!؟ وبعد صمتٍ أضاف: إنهم تعمَّدوا تجهيلكم بلغة العصر، لأنهم لا يعترفون إلا بلغتهم، زاعمين إنَّها لغة السماء!! ابتسم الضابط ثمَّ واصل الاستجواب بلغةٍ عربيةٍ سليمة.

كنغمٍ جريح كانت أصداء الذكريات تنوح على حواشي القلب. كطفلٍ في الريح جلس محجوب السِّر وحيداً على التراب، بعدما تبددت آخر أضواء النهار وأُغلق باب الزنزانة الضيِّقة. كَمْ من الأيام والشهور والسنوات قضاها أسيراً؟ كَمْ من الحكايات والأماني تبادلها الأسرى في محنتهم التي تبدو بلا نهايةٍ قريبة. قبل شهورٍ نقلوهم إلى سجنٍ جديد. وقبل دخولهم إلى المدينة التي نقلوا إليها عصبوا عيونهم حتى دخلوا إلى مبنى تحيطه أسوارٌ حجريةٌ عالية. لأكثر من عشرة أيامٍ وهو قابعٌ في الحبس الانفرادي لاتهامه بأنَّه يحرِّضُ الأسرى على رفض الطعام. قال للضابط المسؤول: أنا لا أحرض أحداً، نحن نطالب بطعامٍ أقل رداءةً.. كان الحبس الانفرادي أشدَّ وطأةً على النفس. يظلُّ قابعاً بين الجدران القاسية في انتظار صوت القفل يدور. كان صرير المفتاح ينحر روحه، وما أنْ تنفتح الكوة الصغيرة ويدخل قليلٌ من الضوء حتى تغشاه طمأنينةٌ عابرة ثمَّ يلفحه هجيرُ الانتظار. طغى الظلام وعتمة الروح فتسلل بخياله إلى البلدة. وقال في نفسه: ((أمي كيف حالها مع الصبر والانتظار)).. شحذ ذاكرته في محاولةٍ للهروب من إيقاع الملل العنيد. كان فؤاده خاوياً إلا من رجاءٍ وأملٍ بعيد. هرب بخياله ينسج أياماً نضيرة:

كانت أليل حجر السقا صبيةً هيفاء. ساعداها ناعمان، رقيقان، يلمعان في سوادٍ ناصع. قبيل الغروب اختلس نظرةً إلى خديها الناعمين ثمَّ تماسكا كفاً بكف يجوبان شاطئ البلدة، يترنمان بأغنيات العشق والوصال. كانت الضفافُ عابقةً بنشوة التلاقي. أليل حجر السقا تركض أمامه مرةً، ويسبقها مرةً أخرى، تميل إليه ثمَّ تضحك، يغرد بعينيها نغمٌ ساحر. ركضا سوياً، ابتلتْ

أقدامهما الحافية على الرمال الرطبة ثمَّ خاضا في الماء.. سبح وراءها فضربتْ الماء في وجهه ضاحكةً. وقف وصدرهُ فوق سطح الماء، يغني للهوى والغرام، وهي حوله تدورُ وترشقه بالمياه. سبحتْ أمامه فلحقها ضارباً الماء بساعديه في قوةٍ وانتظام. داعب شعرها وسط الأمواج فاختلجت بوجدانه نبضات النشوة، وسكنت فؤاده تباريح الهوى. متمايلان يسندُ كلٌّ منهما صاحبه خرجا من النهر، وقفا على حافة الرمل يشهدان قرص الشمس الأصفر المحمر يدنو من الأفق، وسط كرنفال الغروب المهيب..

كان محتشداً بالحنين حين سألته: ألا تحتاجُ إلى رفيقٍ في دروب الحياة؟ أجابها بنبرةٍ واثقة: نحن الآن رفاقٌ نبحث عن مستقبلٍ جميل.. زغردتْ بعينيها الأسئلة الحائرة والرجاء، فدندنتْ بلحنٍ حزين. سادراً في آفاق الشجون قال لها: أخشى أنْ ندرك السراب!! في ذلك اللقاء نقَّر وجدانهما سؤالٌ واحد، وربما في وقتٍ واحد: ما شكل العلاقة التي تربطنا؟ الصداقة، أم أكثر من ذلك أم أقل؟ وقال في نفسه: ((هل أبوح لها بما يعتمل في صدري؟)).. وقالت في نفسها: ((قد يبوح يوماً ما))..

عاد من جولات الخيال إلى مرارة الواقع، وصلابة الجدران، والوحدة القاسية. أوغَّل الليل فاحتدمت بصدره الوساوس والظنون. وقال في نفسه: ((ألويل حجر السقا صديقتي الجميلة. كان ما بيننا واضحاً، ظلَّت تشدُّني لعينيها أشواقٌ دفينة، وحتى افتراقنا لم يبحْ أحدنا للآخر بما يدور في صدره مِنْ حنينٍ وهيام!! هل كنا نحتاج للتصريح!؟ طيفها يزورني مراراً، أصحو أحياناً على نبرات صوتها الرقيقة. ظلَّت ذكرياتي معها سنداً معنوياً والسؤالُ يلاحقني: هل خلاصي من الأسر مرتبطٌ بلقائها!؟ بعدما صارت أطيافها بلسماً لجراح الحرمان والقيود!؟))..

أوغل ليلٌ ساكنٌ عميق. تململتْ تحت جلده نبضات الإرهاص والنداء. ومِنْ أعماق الصمت والملل، سمع دوياً ثمَّ انهمر الرصاص. وسط دوي الانفجارات والقذائف، سمع صوت المفتاح يدور، أنصت متوجساً وقال في نفسه: ((هل ثمة نجاة؟)).. رفرفت بصدره الوساوس ثمَّ انتبه إلى صوتٍ يناديه ويأمره بالخروج فقال في نفسه: ((هل هي همهمات الروح ونشيج النفس!؟))..
وكأنه استيقظ من كابوسٍ مقيت.. من سحيق التوقع بدأ خطوات الخروج مِنْ زنزانته الضيِّقة، وأنضمَّ إلى مجموعةٍ من الأسرى. تحت ظلامٍ دامسٍ اقتادوهم. أمروهم أنْ يتماسكوا بأيديهم، وأنْ يسيروا صامتين، وحذروهم بأنَّ مَنْ يخالف الأوامر سيقتل على الفور. انسحاب تكتيكي كما فهم محجوب السر على الرغم من أن المقاتلين تحدثوا بلغتهم الأم. أدرك المعنى وربما كان واهماً. وقال في نفسه: ((هل حانت ساعة المغامرة!؟))..
لقد انتظر

سنواتٍ مريرةً يداعبه أملٌ ما بإمكانية النجاة من قيود الأسر والامتهان. كثيراً ما راودته ومضات الخلاص حين تشتدُّ عتمة الليالي والنفوس..

لعلع الرصاص ودوَّت القذائف ولمع الشرار. صاح أحد المقاتلين: أرضاً.. انبطحوا وخدودهم تتوسد التراب. مرَّت دقائقٌ من الهدوء الحذر والترقب. وحين أمروهم بالنهوض لمواصلة السير، رنَّ بصدره هاجسٌ عابر فأصغى بكل حواسه. كان صوت أمه يأتي من البعيد، ثم سمع النداء؟ قبع في مكانه ينصتُ لنبضات الخلاص تسري بين شرايين الفؤاد. انسحب المقاتلون والأسرى بينما قبع في مكانه يحاصره الخوف ويحدوه الأمل.. وحين خَفَتَ صوت القذائف والرصاص سلك درب المغامرة. زحف على بطنه فكابد مشقةً شديدة. طعنته شوكةٌ في خاصرته فنهض متألماً ثمَّ قعد على أمشاطه متحفزاً، منصتاً وخاصرته تتوجع. نهض رويداً وبدأ مسيرةً امتدت لأيامٍ ولياليٍ. عبر الحدود الشرقية. شرب من مياه الخيران وأقتات من ثمار المانجو. ابتعد عن طريق أفعى متأهبةً لاقتناص فأرٍ يتقافزُ جزلاً، مزهواً ربما بالشباب والحيوية. فكَّر أنْ يلتفت وراءه ليشهد صراع البقاء لكنه واصل المسير. عندما أشرق عليه صباحٌ جديد أدرك رعاةً يقودون قطيعاً من الأبقار. كلمهم باللغة الإنجليزية فلم يفهموا، ثمَّ باللغة العربية ولم يدركوا أيضاً، فلجأوا إلى لغة الإشارة. قدموا له الحليب الطازج وقطعةً من الخبز اليابس، وتحت ظلالٍ نديةٍ شرب معهم القهوة فارتخت أعصابه وما لبث أنْ استرد بعضاً مِنْ نشاطه. وصفوا له الدرب إلى قريةٍ قريبة وانصرفوا يقودون أبقارهم. نام عميقاً واستيقظ عند الظهيرة. تسارعت خطواته حتى وصل إلى قريةٍ صغيرةٍ. مع آخر أنفاس النهار استوقف فتاةً مليحة على أطراف القرية، أدركت إنَّه غريب فكلمته بإنجليزية ركيكة. قال لها إنه يريد المبيت حتى صباح الغد ليواصل رحلته. أومأتْ إليه فتبعها صامتاً إلى منزل أهلها. استضافوه في قطية منعزلة، حملتْ له الفتاة المليحة إناءاً ليغتسل، ثمَّ قدمت له كوباً من الحليب الساخن وقطعةً من الخبز. أشارتْ إلى الفراش والغطاء، ثمَّ وضعتْ مصباحاً يدوياً على الطاولة الصغيرة، وقبل أنْ تودعه أوصته أن يغلق باب القطّية قبل أنْ ينام.

كانت السماءُ داكنةً والبروق تلمع في البعيد. اضطجع على الفراش يفكِّر في رحلته القادمة. وقبل أنْ يتوغل في التفكير قصفت الرعود وانهمر المطر. ظلَّ لأكثر من ساعةٍ ينتظر توقف المطر.. كانت هناك حركةٌ بين القش في سقف القطّية، تتوقف لفترةٍ ثمَّ تنشط مِنْ جديد. نام قليلاً وربما حلم. أجسامٌ ليِّنةٌ سقطت على جسده فنهض مذعوراً.. نفض الملاءة، وبعد جهد وجد المصباح اليدوي. أضاءه حول المكان، أبصر فأراً وليداً فاقشعرَّ بدنه، فأبصر الثاني والثالث.. وقال في نفسه: ((ماذا أفعل؟ هل أتركها!؟)).. وسط حيرته أبصر مكنسة السعف على حائط الطين، تناولها وكنس الصغار إلى الخارج وأغلق الباب، بينما عواصف المطر تنهمر مدراراً. نهض صباحاً، اغتسل وعاد

إلى القطِّية في انتظار أهل الدار. جلس على مقعدٍ خشبي جوار الفراش. اقشعرَّ بدنه فالتفت يميناً، كانت فأرةٌ بحجم قبضة اليد جالسةً على الحائط بين الطين والقش، تصوِّبُ إليه نظرات الحزن والوعيد، فأدرك على الفور إنها كانت ليلاً تنقِّل صغارها في سقف القطِّية لتحميهم من المطر، فسقطوا عليه فرمى بهم للريح والبرد والمطر. كانت الفأرة تجلس في تحدٍ واضحٍ، مرةً أخرى وقع أسيراً لنظراتها الحزينة المتسائلة. سبح في سراب الأمنيات وبوجدانه ينبض ألمٌ دفين. ظلَّت نظرة الأم الحزينة تراوده بين الحين والآخر. تلك النظرة سطعت بذاكرته مرةً أخرى بعد سنوات، في قاعة المحكمة، في عاصمة الضباب..

في العاصمة الجميلة بأعالي الهضبة الشرقية، قدم نفسه إلى مكاتب الأمم المتحدة قائلاً إنه يطلب اللجوء السياسي هرباً من سعير الحروب وتنكيل الأنظمة. في معسكر الانتظار مضت الأيام رتيبةً، وحين وعدوهم بالسفر إلى أوروبا غازلتهم الآمال ونقَّرتْ صدورهم ومضات الشك. في مركز العاصمة الجميلة التقى بعددٍ مِنْ شباب الوطن، دعاه بعضهم إلى الانضمام إلى التجمع المعارض للحكومة، وقِيلَ له إنَّ عدة فيالقٍ تمَّ تكوينها وتقاتل في جبهة الشرق. كان يبتسم في مرارةٍ ويعتذر بلباقة، دون أنْ يبوح بتجربته الشخصية لأحد. ظلَّ يمني نفسه بالرحيل إلى مدن الشمال الجليدية، بيد أنَّ أطياف أمه ما انفكَّت تراوده. وكان يقول في نفسه: ((سنلتقي يوماً ما، أما الآن فلا بد مِنْ الرحيل)).. لأكثر مِنْ مرةٍ طلبوا منه أنْ يحكي الأسباب التي دفعته لطلب اللجوء. قال لهم في كلِّ المرات: تعرضت للتعذيب والإهانة في بلادي، أطلب اللجوء إلى بلادٍ أخرى ريثما يعود السلام إلى بلادنا.. ومع مرور الأيام الثقيلة في معسكر الانتظار كان الغثيان يعتمل بأحشائه يوماً بعد الآخر. بعد شهورٍ من الصبرِ والترقب أبلغوا عدداً منهم بأنَّهم سيسافرون إلى هولندا. فرح زملاؤه، سَكِرَ بعضهم وغنى، وانداحت خيالاتهم وراء الأحلام الوردية.. لكنه حالما استقبل الخبر انتابته الهواجس، فقال في نفسه: ((إنها رحلةٌ لا بد مِنْ قبولها، لأنَّ العودة إلى الوطن في هذه الظروف مجازفةٌ خطيرة)).. وحين قال له زميل السكن: ستبدأ حياتنا مِنْ جديد، زمَّ شفتيه وهمهم بكلماتٍ مبتورة. لمع بدماغه طيف أمه، أبصرها بعينِ خياله جالسةً في ركنٍ قصي، ساهمةً في البعيد. دندن بصوتٍ حزين ثمَّ قال في نفسه: ((كيف حال أمي مع قلق الانتظار المرير!؟)).

■■■

عاشة أم سُكْسُكْ عاشت الأيام والليالي تتراقص بخيالها أطياف الأمل. يمور بصدرها التوجس، ونبضات الخوف. ظلَّت خطواتها هائمة على الدروب.

خواطرها نازفةً بالأماني، بينما خيالها سابحٌ في سديم الرجاء. كم ليلةٍ سهرتها تُحْصي نجيمات الصيف في انتظار هبوب الشتاء والغبار. كم مرةً كادت أنْ تعصف بها موجات القنوط. كم مرةً ناوشها الأسى وهي على قارعة الحنين. ود العاقب ظلَّ يدعوها للصلاة بين الحين والآخر. لم يتسلل إلى نبراته اليأس ولا الغضب. وكانت تقول في نفسها: ((ومتى دخلتُ الإسلام!؟)).. دعاها برفقٍ وصَبَرَ لسنوات.. ومرةً عند الظهيرة، دعاها للصلاة ثمَّ لاطفها قائلاً: عسى أنْ يجمعنا الله في الجنة. ابتسمت وقالت في نفسها: ((وزوجتك الأولى، وأم أبنائك؟)).. انتقلت أفكارها إليه فقال بعدما ترحَّم على زوجته الراحلة: إنَّها بنت عمي، عاشت معي مشوار الحياة قانعةً بنصيبها مِنْ الدنيا، ورزقنا الله بالأبناء. تزوجنا لأنَّ أهلنا أرادوا ذلك.. صمت قليلاً يستعيد الذكريات ثمَّ أضاف: أما أنتِ فلقد اختارك قلبي.. ظلَّت دوماً تحسُّ صدق مشاعره، وكانت حياتها معه دليلاً حاسماً على إنه يكِنُّ لها في قلبه مودةً ورحمة. بعد أيامٍ جلست لتتوضأ. كانت تعرف الوضوء لطول ما راقبت زوجها حين يتوضأ. بعد فراغها مِنْ الوضوء تناول منها الإبريق، توضأ ثمَّ وقف أمامها وصلى بها العصر. وقالت في نفسها ((هل وُلِدتُ مِنْ جديد؟)).. إيقاعٌ حارٌ يدبُّ بوجدانها. هل راودتها هذه الأحاسيس في زمانٍ ما!؟ وهل عاشت مِنْ قبل في عالمٍ آخر!؟ قبيل الغروب قرأ لها سورة الفاتحة التي تكاد تحفظها لكثرة ما سمعتها في صلواته. ومع الأيام حفظت من زوجها عدداً من السور القصار، وظلَّت تطلب منه أنْ يبقى في المنزل لتصلي وراءه، لكنه واظب على الصلاة في المسجد. أصبحت الصلاة ملجأها من سهام الهموم، ولظى الذكريات، والانتظار الشاهق المرير. بعد فراغها مِنْ الصلاة تظلُّ جالسةً تتضرع إلى الله أنْ ينعم على ابنها بالصحة والتوفيق، وأنْ يعود إلى البلدة. ظلَّ أملها في الله يقوى مع الصلاة والدعاء، لكن أطياف القنوط ما انفكَّت تلاحقها.. أمواجٌ تداهمها لأيامٍ ولياليٍ ثمَّ تغيب لتعود من جديد. كانت ومضات الأسى تضيء دياجي انتظارها المرير، فتنهض في جوف الأسحار تصلي وتواصل الدعاء. وقالت في نفسها: ((هل تعلَّم ابني الصلاة؟)).. وذات ليلةٍ اشتدت محنتها.. كان الأسى والخوف وأطياف الحزن لا تبارح وجدانها، حتى تهاجمها من جديد. ظلَّت على مصلاتها تردد الدعاء وعلى خديها تجري دموعٌ حارقة، حتى انبلج فجرٌ جديد. صلَّت ثمَّ نامت واستيقظت بعد الشروق. بدأت يومها على أسنة الترقب. بعد الظهيرة وصلت بثينة ابنة ود العاقب قادمةً من الخرطوم، وأبلغتهم بالنبأ السار ورغبتهم في أنْ يؤدي والدهم وزوجته فريضة الحج هذا العام. ابتهج ود العاقب للفكرة، افتر ثغره عن ابتسامةٍ حانية ثم اغرورقت بعينيه الدموع. أجلس ابنته بجانبه على الفراش، مسح على رأسها ودعا الله أن يحفظ أبناءها، ثمَّ أضاف: إنها فكرتك، ولكنك أردت أنْ تشركي إخوانك في الأجر. عاشة أم سُكْسُكْ تابعت المشهد صامتةً، هبطت على قلبها السكينة، بيد أنَّ ظلال الشك تحوِّم حوله. طمأنها زوجها قائلاً بأنَّ الله سيفك

محنتها قريباً. وقالت في نفسها: ((هل تصفو الأيام من جديد ويعود ابني مِنْ البعيد؟ وهل سأعود إلى موطني القديم!؟ وهل ما زالوا في انتظاري!؟))..

عاشة أم سُكْسُكْ سعت بين الصفا والمروة. ود العاقب على مقعدٍ متحرك وهي بجواره تحدثه عن الأشواق الفياضة التي تشدَّها إلى هذا المكان، وعن المهابة التي تحيط به. وقالت في نفسها: ((إنها أرض الله المباركة))... وقال لها: هاجر سعت بين الصفا والمروة بحثاً عن الماء مِنْ أجل طفلها إسماعيل. فقالت في نفسها: ((وأنا أسعى تقرباً إلى الله ومِنْ أجل عودة ابني))... وفوق جبل عرفات وقف آلاف الآلاف مِنْ الحجيج في ملابس الإحرام البيضاء. فاضت عقولهم بالدعاء وقلوبهم خاشعة تطلب اليقين. في جبل عرفات بللت الدموع خديها، رافعةً كفيها تتضرع إلى الله أنْ يعيد ابنها الغائب منذُ سنواتٍ عسيرة.

عادت إلي البلدة وبصدرها أملٌ مورق في عودة ابنها من غربته الطويلة. بعد أيامٍ مِنْ وصولها خابرها ابنها للمرة الأولى. كادت أنْ تسقط مغشياً عليها.. طمأنها على أحواله وقال لها إنه تعب كثيراً حتى تحصل على رقم تلفون منزلهم في البلدة. وحين سألته متى يعود؟ قال لها: بعد إكمال الجامعة، بعد سنةٍ دراسيةٍ واحدة. ومرَّت الشهورِ وانتظارها يتصاعد إلى ذروةٍ جديدة. مات ود العاقب فانسكب في قلبها حزنٌ مقيم. أربعةُ أشهرٍ وعشرةُ أيامٍ قضتها حبيسةً في المنزل بعد رحيل زوجها. وكلما اشتدت أحزانها انهمكت في الصلاة والدعاء. تصحو عند الأسحار، تصلي ثمَّ ترفع كفيها بالدعاء وبعينيها الدموع. تدعو بالمغفرة لزوجها الراحل، وتتضرع إلى الله كي يعود ابنها. سهرت الليالي وذرفت الدموع وما انقطع أملها في عودته، ولا هدأت أشواقها. ومن الإذاعات المتخصصة ظلَّت تسمع القرآن في عتمة الليالي. تُنْصِتُ وقلبها خاشعٌ فيزدهر يقينها. لكم حاصرتها الظنون وكاد اليأس أنْ يبدد آمالها. يراودها بين الحين والآخر يقينٌ غامض، وسؤالٌ مبرحٌ ما انفكَّ يلاحقها: هل ستعود إلى ديار أمها وأبيها، ومتى تعود؟ سؤالٌ جارحٌ عنيد.

عند الضحى غادرت دارها. تمهَّلت على الرصيف حتى وصلت أشجار السنط في خور دورة. تنقَّلت بين الظلال تنصتُ للقماري، يزلزل كيانها سؤالٌ غائرٌ في سويداء الظنون. كانت مكالمات ابنها تتواتر على فتراتٍ متباعدة لكنها لم تنقطع. ظلَّ يؤكد لها بأنه سيعود بعد حصوله على وثيقة سفر هولندية. وكلما عصفت بها الأيام إلى حافة القنوط، يتململ بصدرها الأمل، يتبرعم، وينمو.. ولا يلبث أنْ يخبو مِنْ جديد. عادت مِنْ النهر وقبل وصولها إلى الدار، انزلقت إلى سحيق الانتظار، وعربدت بصدرها الأسئلة والدموع:
متى يعود؟
وهل سيعود؟

■■■

الأشياء تبدو ولا تكون
فهل يُدْرِكُ السكون!؟
وهل عاش الإنسان في ظلمات الأرحام خاشعاً مطمئناً،
أم أنه كابد الوقائع والظنون؟

حين وطأت قدماه أرض أوروبا دندن بصدره نغمٌ حائر. كان همه الأول هو الدراسة الجامعية، ذلك الحلم البسيط الذي داهمته الأقدار قبل سنوات. محجوب السر أكمل دراسة اللغة الهولندية بتفوق، ثمَّ التحق بالجامعة لدراسة الاقتصاد السياسي. هكذا قرر علَّه يمتلكُ سلاحاً يناضل به مِنْ أجل الفقراء. انهمك في الدراسة والتحصيل ليضمِّد جراح الأسر الغائرة في النفس، وليحقق أحلامه التي ظنَّ في ليالي الأسر العسيرة، أنها ربما وئدت وإلى الأبد. وكان لسان حاله يقول: ((العلم سلاح المظلومين)).. كانت تجربة الأسر المريرة قد شحذت عقله، وهيأت نفسه للتفكير بهمةٍ عالية في قضايا الظلم والحرمان، التي تطوِّق بني الإنسان. اهتمَّ بالغجر، قرأ عنهم وتتبع أخبارهم. زار الحانات التي يرتادونها، وسمع أغنياتهم المجروحة الحزينة. كانت الأماني تلوح في سماءٍ تجوبها الغيوم. يلمع سراب الحنين، يتوهَّج في صدرٍ عامرٍ بالأمل، والتحديات. فتاةٌ غجرية، شعلةٌ من التوقد والذكاء، قالت له: ((العطش أنهك روحك، تعال إليَّ علَّك ترتوي))..كانت المرة الأولى التي يتذوق فيها طعم الأنثى. رائحةٌ غريبةٌ تسللت إلى رئتيه وسكنت الوجدان. يومها أدرك معنى كلمة الغواية. دعاها فاستجابت وسلكت به منعرج اللذة. نبش ذلك اللقاء العاصف سنواتٍ ولحظات، كابد فيها الحرمان قبل أنْ يلتقي بها. في ذلك المساء كان نهداها عصفورين على أهبة الفرار. وحينما مسهما بشفتيه ارتعشت.. تلك اللمسة السحرية، والرعشة الغامضة، ظلَّت تسري في شرايينه نبضاً مراوغاً، لا يبرح القلب، ولا أدرك العقل سر أسراره. هل أصبحت تلك اللحظة منجم الحكاية والحنين؟ وهل ذكَّرتهُ برعشة الانفصال الأولى من رحم الغياب؟

بعد أسابيعٍ اختفت الغجرية السمراء دون كلمة وداع، ومضت أيامه مالحةً حتى التقى بفتاةٍ رقيقةٍ كنسمة الصباح.. سارة أبراهام هل كانت احتمالاً!؟ لأكثر مِنْ مرةٍ تقابلا وجهاً لوجه. ابتسمت ذات مساء وردت على تحيته العابرة. كانت القاعة التي جمعتهما تشهد حواراً عن التعايش بين الأديان. عندما غادر القاعة الجامعية تقدمت إليه واثقةً فدندنت بصدره أنغام الوصال. صافحها بحرارةٍ ودعاها للجلوس في المقهى المجاور. وكأنما رُشِقَتْ في كليهما رِماح العشق والحنين.. ومِنْ يومها ركضا سوياً على تلال المحاولة. هل يُولَدُ العشقُ هكذا فجأةً مِنْ رحم الغياب!؟ حدَّثها عن حق الكادحين في

العدل والمساواة، وحدَّثته عن حق اليهود في الأمن والسلام. عيناها بحيرتان مِنْ الغمام يغتسل فيهما مِنْ قيود الأسر المريرة، التي ما تزال تكبِّل خاصرة النفس وتخومها، ويرتشف منهما ما يروي ظمأ الروح. رقتها الآسرة طوقُ نجاةٍ وإرهاصُ هلاك، وأحاديثها العذبة تفكك قيود الأسر وتنسج مصيدةً جديدة. هل أصبح أسيراً لهواها بمحض إرادته؟ كان بالنسبة لها مرآةً تنقِّبُ فيها عن مرارات التاريخ، وجراح الهوية والانتماء، علَّهما يدركان أوتار الاتساق. جاءت إليه مِنْ أعماق التاريخ، ومِنْ أغوار النفس المحاصرة بالخوف، وأهوال القرون. وكان يبحث عندها عن ترياقٍ ليشفي جراحات الماضي القريب، علَّه يمتلك قوةً جديدةً لمواجهة أسئلة التاريخ والشعوب.. وحين هفهفت أشرعة الأماني أبحر في سديم عينيها، فرأى شموساً غاربةً وشواطئ تبدو ولا تكون. كانت روحه تهفو للعناق. وكلما أبحر في عينيها، وأغتسل مِنْ آلام الماضي، أدركه الخوف مِنْ الانزلاق على قوس الضياع. يلمحُ عينيها، أو يسمعُ رنين صوتها فيجتاحه سيلٌ من الأشواق. فإلى أين المفر، وصدره محتدمٌ بالأسئلة والأمنيات!؟

سارة أبراهام، طفلةٌ أنثى.. في نظراتها مزيجٌ مدهشٌ مِنْ المكر والبراءة. قالت له ذات مساء: ((أحمل لك معزةً خاصة))..سبح في عينيها، باحثاً عن طوق نجاةٍ مِنْ نداءٍ خافتٍ يلاحقه في عناد. صار عطرها يصاقب روحه، وملامح كفها الندية تجوس بصدره، وأناملها الأنيقة الممشوقة، تسربل الفؤاد بالنغم الساحر الفريد. كان شعرُهَا أسود كثيفاً مسدلاً على كتفيها. شعرٌ طويلٌ جميلٌ تتطاير خصلاته مع النسمات الهيِّنة. كأنها تشدُّ أقواس التاريخ لتصيبه بنبال الهوى.. وضعت كفها اليمنى فوق كفه. تحسس الكف الناعمة باحثاً في خطوطها عن نغمٍ حائر، ثلاثة خطوطٍ عميقة لا تلتقي. وكأنَّ أصابعها الرقيقة الممشوقة، رماحٌ صاعقةٌ تجتاح مكامن الحنين. انغرست الأنامل الرشيقة في مسارب النغم القديم. رفع كفها اليمنى، مسها بشفتيه فسرت في وجدانه رعدةٌ مباغتة. شمَّ رائحة النزوح إلى المرافئ الحميمة، حيث مكامن العشق والتمني.. هل التقيا مِنْ قبل!؟ قلَّب بذاكرته صفحاتٍ قديمة، وقال في نفسه: ((هل عرفتها في زمانٍ سابق؟ وهل عرفتني؟))..تفرَّس لبرهةٍ في كفها الرقيقة وأناملها الممشوقة ثمَّ قال: هل يولَدُ الإنسان خالياً مِنْ الأحزان، أم أنَّها تسري في عروقه ربما قبيل الميلاد!؟ اقتربت منه حتى نفذ عطرها إلى رئتيه ثمَّ قالت: تجيد المراوغة، الإنسان أينما وجد وكيفما وجد، عليه أنْ يختار طريقه في الحياة، وأنْ يدفع ثمن اختياره.. كاد أنْ يبتسم بيد أنَّه لمح بعينيها بريقاً غامضاً. صمت لبرهةٍ ثمَّ قال: كلامكِ صحيح، نظرياً على الأقل ولكن! انحرفت بالحديث فجأةً، قالت وبعينيها بريقٌ حائر: لماذا تُنْكِرُ إنَّ أصولك عربية!؟ أرسل نظراته إلى البعيد، تنهَّد ثمَّ قال: في الأسر أساءوا معاملتي بشكلٍ خاص، زاعمين إنني خنتُ بني جلدتي، وحاربتُ في صفوف العرب ضدهم. وها أنت تزعمين بأنني أتنكرُ لعروبتي!! قلت لكِ إنَّ لغتي

عربيةٌ وهذا لا يؤكد عروبتي ولا ينفيها، ثمَّ إنَّها دعوةٌ عنصرية.. وكاد أنْ يقول لها: أنا مِنْ سلالةٍ مِنْ طين، لكنه أضاف: أنا أنتمي إلى بلدٍ يقع في قلب أفريقيا التي تتوسط العالم، فإذا كان هذا لا يكفي فليس لدي المزيد.. كان يبدو هادئاً وبصدره تجلجل أسئلة الهوية والانتماء. وقال في نفسه: ((أنتمي للبلدة والجميز والنهر)).. سارة أبراهام هل أدمن كفها البضة الناعمة، وإيقاعها الدافئ الحنون؟ ليلةٌ كاملةٌ أمضياها يتناجيان، ويرتشفان من الأمنيات، وبصدره الولهان تجوس كلماتُ الغرام. حين قرَّب كفها اليمنى من شفتيه لسعتها حمى الوجد والعناق، وصدره خافقٌ بعبير الأشواق.. تفتقت المعاني الكامنة في الحروف ودندن بصدره نغمٌ مكنون. وعلى قوس الصبابة همست في أذنه: السر محجوب.. اختلس نظرةً إلى عينيها وظعن بذاكرته إلى أيامٍ بعيدة. حدثها عن ألويل حجر السقا وعن أغنيات الصبا على شاطئ البلدة، فقالت له: هل تحبها؟ ثمَّ استدركتْ: هل أحببتها؟ أجابها لا إرادياً: لستُ أدري. ومن يدري؟ قالتها بنبرةٍ ماكرة، ثمَّ سحبت كفها من كفه وقالت في نفسها: ((هل جرحت مشاعره!؟)).. ردد لا شعورياً: من يدري؟ كان قد أدرك وعلى نحوٍ غامض، ومنذ البداية إنَّها مغامرةٌ خاسرة، لكنه قبل الرهان!! قالت له: كنتُ نجمة المدرسة، أحبني المعلمون والتلاميذ. شاركت في النشاط الإبداعي، كنتُ أغني بصوتٍ جميل، وأعزف بمهارةٍ على البيانو. كانت الأيام حلوة. حلمت دوماً بمستقبلٍ زاهر. وذات مساءٍ كنا عائدين مِنْ رحلةٍ مدرسية، وحين توقفت الحافلة في محطةٍ بوسط أورشليم، سمعنا دوي انفجار. سالت الدماء وهستيريا الصراخ، تناثرت أشلاء الضحايا، وأسرعت سيارات الإسعاف والشرطة والدفاع المدني. سقطت بعيداً أكاد أنْ أموت مِنْ الرعب. كان جسدي سليماً لكنَّ جراحاً عميقةً اجتاحت روحي. يا لها من كارثة!! خمسُ زميلاتٍ ذهبنَّ ضحيةً لقنبلةٍ فجرها فلسطيني في نفسه.. بعد صمتٍ حزين أضافت: بدأتُ دراستي الجامعية وجراح تلك اللحظات غائرةٌ في نفسي. لا أكره العرب ولكني أخاف منهم. ظلَّ هذا الحادث حاجزاً بيني وبينهم. وأصدقك القول حتى هذه اللحظة ما زال الخوف يحكم مشاعري تجاههم. وعندما عرفتك لأول مرة ظننت إنكِ أفريقي، لأنَّ بشرتك سوداء، وحين علمت بأنَّ لغتك عربيةٌ انتابتني مشاعرٌ متناقضة.. شخصٌ عرفته، يبدو هادئاً ويحمل مشاعر طيبة للإنسانية، ولكنه ينتمي إلى الثقافة العربية!! صدقني كانت حيرتي كبيرة. فكرتُ في الانسحاب ولكني قبلت التحدي. فأنا كما قلت لك لم أكره العرب، وأتمنى أنْ لا أكره أحداً. وربما تكون علاقتي بكِ سبباً لإزالة خوفي منهم. القضية أعقد مما نتصور. إنَّ تاريخ اليهود طويلٌ ومرير، وممتدٌ عبر القارات والقرون. تاريخٌ مِنْ البطش والمذابح والفرار. لكنهم استطاعوا تحدي الفناء، وحافظوا على هويتهم.. وعندما تحقق لهم أخيراً حلم المأوى ووطن يحميهم، كان عليهم أنْ يمثلوا دور الجلاد، وربما لأول مرةٍ في تاريخهم. لقد آمنت بحقنا في وطننا التاريخي، ولكن ممارسات الدولة العبرية ضد الفلسطينيين اضطرتني للرحيل. على شاشات التلفزة شاهدتُ

حماقةً حسمت التردد بداخلي فحزمت حقائبي وسافرت.. ناشطون مِنْ أجل السلام، جاءوا مِنْ مختلف أنحاء العالم إلى قطاع غزة. فتاةٌ هولندية وعلى يمينها شابٌ فرنسي وعلى يسارها فتاةٌ أرمينية، تماسكوا بأكفهم ووقفوا أمام الجرافة. تسعة مِنْ الجنود الإسرائيليين أزاحوهم بعيداً بعد أنْ فرقوهم. هدمت الجرافة منزلاً مِنْ طابقٍ واحد. شاهدتُ قرب الركام امرأةً تبكي، وبجوارها طفلٌ يشير إلى الحجارة المتناثرة. شاهدتُ لعب أطفالٍ مهروسة، وفردة حذاء. في تلك اللحظة قررت الهجرة مِنْ بلادي لأنَّ حكومتها لا تحترم حق الأطفال في العيش بسلام. أنا لا أستطيع أنْ أخدع نفسي.. وقال لها: لست ضد اليهود ولا يسعني إلا الدفاع عن الفلسطينيين. فإذا سلمنا بأن اليهود قد عادوا إلى وطنهم التاريخي فإنهم حرموا شعباً آخر من وطنه وتاريخه!! وكاد أنْ يقول لها: إنَّ دولتكم قامت على نفي الآخر، على المذابح والفرار..

تصدعت الحواجز الفاصلة بينهما واتسعت مساحات التلاقي، ثمَّ توِّج التناغم النفسي عند ذروة النشوة الجسدية، بيد أنَّ ظلال الشك لم تنقطع. سارة أبراهام درست تاريخ الأديان.. قالت له: آثرت الرحيل عن وطني حتى أستطيع العيش في منطقةٍ محايدة، وأتمكن مِنْ الدراسة الموضوعية، فأنا باحثةٌ عن الحق. ثمَّ أضافت: أنتَ تتعامل مع الغجر وتدافع عنهم، وأغلب أصدقائك مِنْ المهاجرين، لماذا تتحاشى أهل البلاد الأصليين!؟ فقال لها ببرود: أنا لا أتحاشاهم، كلٌّ منا يمضي في طريقه، ولكني أحترم البلاد التي آوتني وعلمتني ومنحتني فرصة العيش الكريم..

كيف استطاعت القوقعة الإثنية اختراق التاريخ وصراع السلالات وحصار القرون والتأثير في الحاضر وربما في المستقبل؟ هل لعبت اللغة والأديان دوراً محورياً في تماسك القوقعة الإثنية؟

الغجر واليهود صمدوا عبر التاريخ. كأنَّهم منذورون لمهمةٍ مصيرية. إنَّ إصرارهم على تميّزهم وخصوصيتهم ربما كان إشارةً إلى تميز الفرد وحقه في التفرد والتفكير الحر. وإذا كان اليهود قد ارتبطوا بالسماء في دوراتٍ متعاقبةٍ رغم انغماسهم في الشهوات، فإنَّ الغجر ارتادوا سماء الألحان، والحانات الحزينة. ظلَّوا أصدقاء الشمس والمطر والدروب، فلماذا يتجاهل العالم قضيتهم!؟ فإذا كانت القبائل التي استقرت في أماكن محددة، قد تجانست بدرجةٍ ما، ثمَّ أصبحت شعوباً وأسست دولاً، وأعلاماً، وأناشيد وطنية.. أليس مِنْ حق الغجر الذين ارتادوا الصحارى والسهوب، أنْ يحملوا الهوية العالمية؟ التي تمكِّنهم مِنْ الرحيل وقتما يشاءون إلى حيث يشاءون؟ كيف نستطيع الدفاع عن الإنسان مِنْ حيث المبدأ؟

وفي مقهى تغشاه نسمات البحر الرطبة قالت له: أعرف إنك تنتمي إلى الثقافة العربية ولكني أعيش معك بكلِّ الصدق والإخلاص. وقالت في نفسها: ((استطعنا مراراً أنْ نبلغ ذروة النشوة وما زال ينقب في براري جسدي عن معاني الجمال)).. وكادت أنْ تقول له: إنَّ رماحك انغرزت في وجداني، وأعتقد إنَّي قد لامست أوتار قلبك. لقد قطعنا أكثر مِنْ شوط في طريقٍ اخترناه وعلينا أنْ نكمل المشوار.. وحين قالت له مازحةً: أنت مِنْ عرب السودان!! عبرت جبينه سحابة غضب. فكَّر لحظاتٍ ثمَّ نهض من جانبها فقالت بصوتٍ رقيق: مالك يا حبيبي؟ فقال في نفسه: ((اسمي محجوب ولغتي عربية. ثمَّ ماذا؟)).. رمقته بنظرةٍ حالمةٍ ثمَّ تحول البريق بعينيها إلى نداءٍ لا يقاوم. وحين أسبلت جفنيها تململت تحت جلده نبضات العناق.. استلقت على بطنها وحركت ساقيها العاريين إلى أعلى، ثمَّ اعتدلت واضطجعتْ على ظهرها. نهضت بنصفها الأعلى على قوس الرجاء. اتكأتْ على مسند الفراش..

ثمَّ تأودتْ بجسدٍ
اكتملتْ فيه نبوءةُ النيران
واشتعل بالشهوة المقدسة

على مرمى الفؤاد
نهض إليها على قوسِ الارتباك
تشدّه نبالُ الرغبة
إلى مرجل النشوة
باحثاً في شبقٍ محموم
عن رعشة الهلاك
عن شفقٍ مختوم
برحيق الضفاف.

سادراً في الرعشة
والشبق المحتوم
هل أدركته بشارة النجوم؟
فنام واستراح
لريثما يدركُه الصباح.

■■■

بعد خمس سنواتٍ مِنْ وصوله إلى أوروبا تحصلَّ على وثيقة هولندية فقرر السفر إلى الوطن ليرى أمه ويطمئن عليها. خابرها وقال لها إنه سيعود بعد شهرين فقالت له: نحن في انتظارك فلا تتأخر..

حزم حقائبه وسط دوامات الهواجس والظنون. محجوب السر على صهوة الحنين يرنو لعينيها فيرتد بذاكرته إلى الضفاف، إلى رحيق الصبا والأمنيات. يرنو لعينيها فينكسر قوس الاحتمال. سارة أبراهام قالت له: ستعود إلى أمك وأحبابك، فهل تذكرني عندها؟ وقال في نفسه: ((سارة أبراهام فتاةٌ صادقة، نقية المشاعر))... وقالت له: العودة إلى الوطن شيءٌ رائعٌ ومثير، وقالت في نفسها: ((هل سيعود إلى حبيبته الأولى!؟ وهل ما زالتْ في انتظاره؟ هل أوهمني بالحب؟ لا أعتقد، إنَّه يبدو صادقاً))... وقالت له: ألويل حجر السقا هل أحبتكَ؟ ولما لاحظت حيرته أضافت: لعلَّك لم تسأل نفسك!؟ وحين سألته: هل ستعود إلينا؟ أجابها لن أمكث أكثر مِنْ شهر. فسألته بصوتٍ ماكر: وهل ستعود وحدك؟ ابتسم وقال في نفسه: ((وحدي ربما سأمضي حياتي))... طلبت منه أنْ يؤجل السفر فاستجاب لطلبها في المرة الأولى، ورضخ لرجائها في المرة الثانية. وفي المطار وقفت بجانبه ولسان حالها يقول: مسافرٌ أنت إلى وطنك وأهلك وتتركني هنا وحيدةً!!

هل عاد محجوب السر إلى البلدة، على صهوة الأماني، تنبض بصدره الأشواق القديمة؟ هل جاء بحثاً عن تلك الصبية الهيفاء في الزمن النضير؟ كانت المحطة تعجُّ بعربات الكارو التي تسير على عجلتين، تجرها الحمير ويقودها صبيان العرب. سأله أحدهم: هل أنقلك إلى المعدية!؟ أعدادٌ كبيرةٌ من الناس لا يعرفهم ولا يعيرونه اهتماماً، فهو غريبٌ في نظرهم. هل دنا من قوس النجيع ثمَّ تدلى إلى غربةٍ جديدة!؟ أشجار النيم ازدادت عدداً وكثافة. رائحة المكان ما تزال عابقة. بعض شجيرات الطندب ما تزال صامدة. في الطريق إلى البلدة عصفت به رياح الذكريات والحنين. كانت لهفته إلى لقاء أمه تزداد كلما اقترب من الدار. عَبَرَ بجانب النخلة، أصبحت طويلةً ونحيلة، تهفهف سعفاتها في الأعالي.. وعندما اقتربت خطواته من الدار عربدت بصدره الأشجان.. هل دلق مياهه على قارعة المحاولة وركض وراء السراب!؟ هل ما زال يحبها، تلك الصبية الهيفاء؟ وهل أحبها أصلاً!؟

هل عاد إلى البلدة ليستريح قليلاً من مفازة الغربة والارتحال؟ عانق أمه في شوقٍ مهيب. بصدرها نشيجٌ مر، وعلى مآقيها الدموع، وبوجدانها اشتعلت جمرة الانتظار الطويل. تقاطر الأهالي إلى منزل ود العاقب لتهنئة عاشة أم سُكْسُكْ بسلامة وصول ابنها. بعد يومين قالت له: ألويل تزوَّجت وأنجبت طفلين.. استمع إلى أمه صامتاً ثمَّ قال في نفسه: ((ألويل حجر السقا هل طافت بخيالها ذكرياتنا الجميلة، أيام الصبا ومطلع الشباب؟ أم أنَّ الأيام قد بددت الذكريات؟ هل انتظرتني!؟ لم يكن بيننا اتفاقٌ ولكن مشاعرنا كانت واضحةً ولا تحتاج إلى الكلام. كانت ساحرتي الجميلة وكنت أظنُّ إنني فارسها الوحيد. هل كان غيابي المفاجئ وغموض مصيري سبباً كافياً لنتنكر

لنداء القلب!؟ لقد عشتُ حياتي بعد فراري من الأسر، فهل من العدل أنْ أطالبها بوفاءٍ لم ألتزم به!؟))..

في اليوم الثالث نحروا خروفاً فاجتمع الجيران على موائد الإفطار والغداء. كان الصبي العاشق يعمل في همةٍ ونشاط، يستقبل الضيوف ويقدم الطعام رغم تحذيرات أمه المتكررة ليستريح، لأنه ما زال مريضاً، لكنه واصل عمله مبتسماً. نهار البارحة قال الصبي العاشق لصديقه في المدرسة: رأيت في الحلم مريم بدر الدين، رأيتها عاريةً تماماً تسبحُ في النهر. رأيت نهديها يتراقصان كثمار الجنة.. وحين سأله صديقه ساخراً: وهل رأيت الجنة!؟ أجاب بنبرات التحدي: دعنا مِنْ الجدال، قلت لك إنّي رأيتها، كانت حائرةً تحدِّقُ إلى المياه قبالة منزل الوداعيَّة المهجور. قلت لك رأيتها عاريةً كساحرة النهر.. وحين عاد الصبي العاشق مِنْ المدرسة سقط صريع الحمى والهذيان. أسرعت به أمه إلى المستشفى، وجدوها خاليةً ولا أحدٌ هناك سوى حارس البوابة الخارجية. في طريق العودة إلى الديار، كانت الأم تحدِّث نفسها بصوتٍ مسموع. فتاةٌ عابرة التقطت بعض الكلمات وقالت لهم: مريم بدر الدين في البلدة ويمكنها مساعدتكم.

حين وضعت مريم بدر الدين كفها على جبين الصبي المريض، فتح عينيه وكأنما زجَّ به في دوامة أحلامٍ غامضة. تمتم ثمَّ صمت. كانت الأسرة متحلِّقةً حولهما. سألتهم مريم بدر الدين بعض الأسئلة ثمَّ طلبت قطعةً مبللةً من القماش وضعتها على جبين الصبي المريض. أعطته قرصاً واحداً وقالت لأهله إنها لا تستطيع تشخيص المرض، وعليهم السفر إلى أقرب مدينة. وبينما الأم تتفاكر مع الأب حول ضرورة استدانة بعض المال لمصاريف السفر والعلاج، كان الابن يهذي بكلماتٍ مبهمة، وسرعان ما خرج الأب بحثاً عن النقود.

صمت الصبي وهدأت أنفاسه. وبينما الأسرة على صهوة القلق والحيرة، في انتظار عودة الأب. كانت الدقائق تمرُّ طاحنة، وجسد الصبي يستعيد حرارته الطبيعية تدريجياً، ثمَّ تبلل الجسد بالعرق تحت الأغطية..

نهض الصبي العاشق، تفرَّس في وجوه أسرته، ثمَّ قال لهم إنه تعافى. طلب قليلاً من الطعام، أكل وشرب كوباً من عصير الليمون، ثمَّ نهض للخروج. ترجته أمه كي يبقى على الفراش فهو ما زال متعباً، فقال لها إنه تعافى بفضل الطبيبة الساحرة. وسط دهشة الجميع تساءلت الأم: أيُّ سحرٍ يا ولدي!؟ هي الحبة التي أعطتك إياها. رد ضاحكاً: شفتني بأناملها الجميلة، ألم أقل لكم: إنَّها ساحرة..

■■■

جاءت تسعى مِنْ رصيف المجادلة، والغبن والشتات. مريم بدر الدين رمحت في براري الاحتمال، حلمت بالدعاش، وشوق الحقول إلى الرشاش. وحين حملتها موجات الإياب إلى الضفاف، انتصبت عند حافة النهر، بين الطين والماء. ومن فوق صهوة النشوة عانقت الجذع، وسعف نخلة الشاطئ ينضّح بالحنين. حينها رفرف الهدهد لثلاث مرات.. ابتسم ثمَّ طار إلى الجنوب، حيث العجوز عند حافة الماء، يقرأ على صفحة النهر، ما تيسر مِنْ نشيد الإخصاب.

هل عانقت النخلة حقيقةً ولثمت اللقاح!؟ أم أنَّه محض سراب؟ قالت الأرضُ، قال النهرُ، قالت غمامةٌ متسربلةٌ بنزيف الوداع، والشمسُ سابحةٌ على قوس الهمود: مريم الأميرة، مهرةٌ جسورة، عادت إلى الوكر القديم، حيث البراءة والنزيف صنوان، ضفتان لنهرٍ واعدٍ بثمار الكوثر، وأنغام الخلود.. قال العجوز والهدهد منصتٌ في خشوع: الروح الإلهي يسري في ذراري الوجود.. العشق قديمٌ، والرحيق يدبُّ في الجذور، يطلب الثمر الفريد، وحكمة الخلود.. صمت العجوز لبرهةٍ، داهمته أطيافٌ مِنْ الخوف حين جنح بخياله إلى تخوم الأبدية..

مريم بدر الدين مضت أيامها بين العمل والابتسام، ثم العودة مساءاً إلى حجرتها حيث تسكن مع زميلتها في شقةٍ بأحد أحياء وسط الخرطوم. تخلد إلى نفسها باحثةً بين طيات الذاكرة عن برقٍ أو احتمال. سادرةٌ في دياجير عشقٍ خاثر.. استيقظت ليلاً لا تدري ما السبب. برقٌ غامضٌ عبر خيالها، وحيرةٌ ناوشت الفؤاد. هل عادت أطياف الحزن لتتسكع على دروبها مرةً أخرى!؟ وهل بارحتها الأحزان أصلاً!؟ على جمر الأرق تقلّبت على فراشها، ومع نسمات الصباح وشوش بأذنيها سعف نخلة الديار. بعد ثلاثة أيامٍ مِنْ قلقٍ متواترٍ، خابرت خلالها أهلها أكثر مِنْ مرة، أبلغوها تحياتهم وطمأنوها على حالهم. بيد أنَّ جذباً لا يقاوم دفعها لحمل حقيبتها والسفر إلى البلدة.. لم تصدق عينيها حين دلفت إلى الشارع وخطواتها تتجه غرباً. هل يعقل إنَّها ربما ضلَّت الطريق!؟ التفتت إلى منزل الحاج سعيد المهجور، ثمَّ إلى النادي الأهلي المنهار.. أين النخلة!؟ حين وصلت قرب الدار أحنت رأسها أمام الجذور الحزينة، عبرت بذهنها أطياف اللحظات الفواجع التي مخرت فؤادها إلى منابع الروح. تحسست بأناملها آثار الفؤوس على الجذور، ثمَّ رفعت رأسها وبعينيها غلالةٌ مِنْ الدمع، فأبصرت الجذع اليابس جوار حائط البئر المهجورة، كومةً مِنْ الذكريات والأنين..

قيل إنها تهاوت على أعتاب الصباح، حينما هبت ريحٌ خفيفة مِنْ الجنوب، فخفق الجريد، ووشوش السعف. سكنت النخلة لتلملم ذكرياتها في الحياة، ثمَّ هوتْ إلى التراب. وقيل اجتثوها وقت القيلولة، نهشت الفؤوس جذعها

الريان فتهاوتْ وفي الجذور بقيةٌ من أشواق.. وربما انهارتْ في الهزيع الأخير مِنْ الليل، حين اشتعلتْ البروق، وقصفت الرعود، والريح تعربد في الدروب.. وقيل إنَّ رجلاً حضر مِنْ قريةٍ مجاورة، أنجز المهمة لوحده في ضرباتٍ مركزةٍ متتالية.. أكمل عمله ووضع فأسه على الجذور الدامية، وحولها شوكتان وثلاث سعفات..

كانت الشوارعُ خاليةً مِنْ المارة والشمسُ تلهبُ الدروب.. حين بدأتْ الضربة الأولى تقاطر الأولاد، ثمَّ تبعهم الكبار وتحلَّقوا حول المكان. خمسة شبانٍ انهالوا بفؤوسهم على الجذع الريان، بدأ قائدهم الضربة الأولى ثمَّ توالت الضربات. كانوا سبعةً وربما تسعة، لم يشاهدهم أحدٌ مِنْ قبل في البلدة، الراجح أنَّه تمَّ استئجارهم مِنْ الجوار. عند الأصيل تجمَّع عددٌ مِنْ شباب البلدة، شمروا عن سواعدهم وحملوا الجذع مِنْ عرض الشارع إلى جوار حائط البئر المهجورة. بعض المارة استنشقوا عبير الطلع عند مرورهم مساءاً قرب الجذور المغدورة. وزعمت امرأةٌ عجوز أنَّ رائحة الطلع انتشرت حول المكان لسبعة أيامٍ أو تزيد..

تغير سكان البلدة، رحل معظم القدامى، وحلَّ آخرون. والداها رفضا الرحيل إلى العاصمة. قال بدر الدين إسماعيل: إنَّ مِنْ الخير له البقاء في داره. وقالت زينب المبارك: كيف نغادر ديارنا ونتركها لتصبح خرائب!؟ مريم بدر الدين استمعت إلى والديها ولسان حالها يقول: ما جدوى أنْ يهجر الإنسان دياره في أخريات العمر!؟ عند الأصيل غادرت الدار، وقفت بجانب جذور النخلة المقطوعة، تطلعت جنوباً إلى حلة فلاتة ثمَّ سارت شمالاً وسط خرائب السوق القديم. توقفت أمام ركائز دكان المبارك المتهالكة، باب الدكان الخشبي العتيق مازال صامداً.. تذكرتْ يوم هرولت مِنْ الداخل إلى دكان الحلاق القريب، كان المحل خالياً وقت الضحى، تسللت إلى الداخل، وقفت أمام المرآة الكبيرة تتأمل جسدها الصبي.. عبرت بجانب بيت الساقية الذي أصبح خرائب خاوية. تهدمت الحيطان، واختفت الأبواب والشبابيك العتيقة. تنهدت في أسى ومضت في طريقها.. عصفت بوجدانها أشجان الصبا، ألحان الطفولة، وأطياف الجمال، والعشق والتمني. كيف انطمست تلك الأحاسيس الحميمة تجاه الدروب، والبيوت والشجر!؟ هل تُبدِلُ الأمكنة إيقاعاتها؟ أم أنَّه الإنسان يتبدل مع الأيام والأحداث، فيتغير إحساسه بالأحياء والأشياء؟ حتى الذكريات تبدو أكثر هشاشةً، وفي طريقها للتلاشي ولنسيانٍ أخير!! وصلت خور دورة تدندن بنغمٍ حزين. حين صعدت الرصيف وتمدد بصرها شمالاً، أبصرت نخلة الشاطئ، رفَّ بوجدانها نداءٌ حميم، تذكرت ود العاقب يوم جلب اللقاح مِنْ نخلة الشاطئ، وقال إنها مِنْ أجود أنواع التمور، لقاحها مبروك وينتج محصولاً وفيراً. نزلت مِنْ الرصيف إلى رمال الضفة المنبسطة، تذكرتْ طارق ود الموية حين أودعها بقيةً مِنْ رحيق الأخوة، ثمَّ ودعها، ومضى في سبيله

فارتجَّ صدرها بالشهيق الحامض. عند نخلة الشاطئ دفنت قدميها الحافيتين في الرمال اللينة، وأسندت ظهرها إلى جذع النخلة تشهد غروباً شاحباً حزين.. على الضفاف قبيل حلول الظلام، تواتر النداء صادحاً بالأنين، عابراً على صهوة الجموح، ليرتاد آفاق الحيرة والانتظار. تواتر نداء الحنين..

كان الأملُ عظيماً في رحم الجمال. حين فاجأها النداء تزلزلت، لمعت بأحداقها شهوة السؤال الأبدي الناهض مِنْ كيد الاحتمال. تمرحُ الأسماك، ونقيق الضفادع على الضفاف. هل ثمة زفافٌ كي تحبل الأرض بشعلة الخلاص!؟

كان المساء يخيِّم فوق البيوت حين عادت مريم بدر الدين مِنْ نخلة الشاطئ إلى الدار. اندست في فراشها وسط الحوش تراودها الأطياف.. هل أخذتها سِنةٌ مِنْ نومٍ فغشيتها الأحلام؟ أم أنَّ الأطياف والرؤى تراقصتْ أمامها في لغة الحكاية، وصوتٌ غامضٌ ينسج مِنْ الكلمات الشائقة، حكاية عروس النهر، ونخلة الشاطئ.. حلَّقت بها أحلام اليقظة والأشواق الدفينة:

ظلَّت لأربعين يوماً داخل الحجرات، حتى لا يتعرض جسدها للشمس. وقبل أسبوعٍ مِنْ الميقات المرصود، توالت عليها نساءٌ خبيرات، دلَّكن جسدها بعجين الذرة المخمر، والمعتق بالعطور المجلوبة مِنْ الهند. وعند المساء اشتعلت أعواد الطلح في حفرةٍ صغيرة. وحين عبق الدخان المعطر، جلست على برشٍ دائري مركزه دائرةٌ فارغةٌ موضوعةٌ فوق حفرة الدخان. أنزلت قدميها وساقيها في الحفرة، عاريةً، حاسرةَ الرأس، يغطي جسدها لحافٌ مِنْ الصوف. رشح الجسد العرق وتشبع بعطر الطلح. ومع الأيام اكتسي الجسد لوناً خمرياً، وعطراً قاهراً. خضبوا كفيها وقدميها. ونقشتْ الفتياتُ الماهرات زهور اللوتس بالحناء على ساقيها العبلتين. في اليوم الأربعين لفَّت حول وسطها إزاراً مِنْ قماشٍ ناعمٍ ومراوغ، خطوطه حمراء غانية، وسوداء لامعة، ثمَّ غطت رأسها وجسدها بثوبٍ أبيضٍ ناصع. حول عنقها خرزاتٌ بيضاء وسوداء. يزين ساعدها الأيمن سوارٌ فضيٌ منقوش. وضعوا على رأسها الضريرة، وربطوا على جبينها هلالاً ذهبياً. ومن رسغيها تدلى حريرٌ أحمرٌ وودعتان. كانت في أوج الأنوثة، يانعةً، تنضح عطراً، ويصدرها هديرُ الأشواق..

لم تشرق الشمس في ذلك الصباح. الغيوم الرطبة خيَّمت فوق سماء البلدة منذ ليلة البارحة. رطنتْ الدلاليك ونزفتْ المزاميرُ الألحان الشجية. سار موكب الزفاف مِنْ الدار. النساء يضربن الدلوكة، الصبايا يغنين، والفتيان يتمايلون طرباً، ووسطهم عروس النهر تحفها الفتيات. عند وصول الموكب إلى غابة السنط استقبله غناء العصافير، وعبير الأزهار. كانت خضرة أوراق الغابة يانعة، بينما صغار الأسماك تمرح على الشاطئ، تلتهم ما تيسر لها من

دقائق حياة النهر. أصداءُ طبولٍ وغناءٍ قادمةٌ مِنْ أعماق التاريخ والحكاية. مواويلٌ ومزاميرٌ وإيقاعُ حشودٍ راقصة.. تفجرت ينابيع الفرح في المكامن القصية، ثمَّ حملتها النسمات الرطبة إلى غابة السنط. فيضٌ مِنْ الغناء والمرح. فيضٌ مِنْ الأشواق والعطور. ثمَّ جاءت أسراب العصافير تغني نشيد الإخصاب. كانت الأنغامُ مترعةً بالنداء القديم، الكامن في الصدور، والهدهد الحميم يحلّق مطارداً حكمةً هاربة، وربما أغنيةً منسيةً بين طيات الحنين. الغيوم ظللت الآفاق وتناثر رذاذ المطر. شذى الأزهار الصفراء، والفراشات الزاهية في موكب الندى. مِنْ بين أشجار السنط، امتشقت العروس جسدها كسهمٍ على قوس المجادلة. سارتْ بخطواتٍ رزينةٍ إلى زورق الزفاف، دفعته مِنْ الطين إلى المياه، ثمَّ صعدت فوقه. على برشٍ مصبوغٍ بالأحمر والأخضر والأزرق، جلستْ عند المؤخرة وأمسكتْ الدفة. تقدم الهدهد سرب العصافير، هفهف الشراع وزورق الزفاف يشق النهر شمالاً. الفراشات تحفُّ العروس، والصبايا على الضفاف يغنين أنغام الزفاف. كانت عيناها ناعستين، وعلى خيالها تلمع أطياف عاشق الرحيل. هفهف الشراع حين سرى ريحٌ مِنْ الجنوب، ونخلة الشاطئ شمال البلدة ترفل في حلل الزفاف.. حين عبر القارب قبالة منزل الوداعيَّة المهجور، تذكرتْ الحبوبة فاطمة بت أحمد، فسالتْ على خديها دمعتان حارقتان، فارتْ الأحزان بصدرها لريثما تغور في الوجدان. هفهف الشراع والزورق يمضي شمالاً وفوقه تحلق أسراب الفراشات الزاهية. ابتسمت في أسى والفراشات حولها تدور في أنساقٍ متعددة، حيناً في شكل القلب، وكجناحين حيناً آخر، ومرةً تتموج في أنصاف دوائر، بينما الهدهد يحلق عالياً يقود موكب الزفاف. قبالة الجميزات رنَّتْ الألحان الحالمة، ومِنْ أعالي الأغصان انهمر صوتٌ ناعمٌ حزين.. جنّي شاب صدح فوق الجميزات حين عبر زورق الأحلام. دوَّخه العطر فانطلقت أوتار صوته مترعةً بالأشجان.

واصل سرب العصافير رحلته شمالاً، بينما انحرف الهدهد شرقاً، محلقاً فوق نخلة الشاطئ.. تسابقت الفراشات في موجاتٍ متلاحقة ودارت حول جذع النخلة.. ابتسمت العروس كأنها تؤوب مِنْ مجاهل النجيع إلى الوطن القديم، عند حافة الغربة والارتحال.. ظلَّتْ جالسةً عند مؤخرة الزورق، ممسكةً بالدفة، زائغة البصر، ترنو إلى أفقٍ مجهول. تململتْ تحت جلدها القشعريرة، والزورق يدنو مِنْ الضفة. قبل نزولها كشفت عن ساقيها، ثمَّ أنزلت قدميها إلى المياه الضحلة، بينما سعف النخلة يتراقص جزلاً. سارت خطواتٍ على الرمل حتى وقفت بقدميها العاريتين فوق الجذور. وضعتْ كفيها على الجذع ثمَّ استندت إليه يعربد بصدرها نداءٌ قديم. طوقته بساعديها ثمَّ تطلعت إلى أعلى، حيث اللقاح قابعٌ بين الأشواك. تشبثت بكفيها على الجذع، تأرجح جسدها بينما ضفائرها حائرةٌ وراء ظهرها. بقدمين حافيتين وكفين مرتعشتين تسلقت إلى أعلى. أمسكت اللقاح بكفيها، أدنته مِنْ

شفتيها ولثمتهُ في شوقٍ عارمٍ، ولهفةٍ طاغية.. فاح بصدرها عبيرُ الأنوثة، وانبثقت الأشواق الكامنة في سويداء الفؤاد. خدشت شوكتان بارزتان حلمتي النهدين البتولين، ثمَّ انغرست في مكامن الأمومة والحنين. وحين لامست الشمس الأفق، لسعت خديها أطراف سعفةٍ فانتشتْ، عانقتْ النخلة والشفق الأرجواني يرشق السحب المنداحة في سماء الغروب. أفاقت مِنْ رعشة العناق، تفتش عن رحيق البذرة الأولى في شرايين الوجد القديم، بينما قبس الميلاد يلوح في البعيد.

كان الليل قد انتصف حين راحت مريم بدر الدين في سُباتٍ عميق.. عند السحر أيقظتها نبضات الوعد والميقات. وبين الصحو والمنام تواترتْ بذهنها الأحلام.. كانت نخلة الشاطئ تميس في الأعالي، الرمال ناصعةٌ والقمرُ اكتمل بدراً في سماءٍ صافية. وكان أنين أوتار الربابة يداعب أمواج الليل..

هل سمعتْ النداء؟

هل حلمتْ؟

مِنْ بين أقواس الحيرة، سرى بها الحنين وفيض الأمومة، إلى نخلة الشاطئ. فوق بيوت البلدة تسللتْ إلى أنفها رائحة الطين القديم. وحين حلَّقت فوق المسجد ارتعشتْ أطرافها، وتحفزتْ براعم الروح بين مسام الجسد، وسمعتْ صوت المؤذن الرخيم في ذلك الفجر البعيد. وحين لاحت نخلة الشاطئ تحت نور القمر، أبصرتْ عاصم بدر الدين في شحوب الوداع، يرنو إلى أفقٍ عنيد، ولم يلبث أنْ اختلج جسده ثم حلَّق صاهلاً في مدارات الخلود..

هبطت عند نخلة الشاطئ، فوق الرمال الرطبة، عاريةً من اليقين والثياب. وقفتْ عند حافة الماء. داعب خيالها طيفُ أمها وأبيها على ضفاف نهرٍ شاسع، يتناجيان ويشيران إليها. ابتسمت والتفتت إلى يمينها فأبصرت الحبوبة فاطمة بت أحمد، جالسةً على فروتها، غائرةً في صمتٍ مهيب، بينما الأمهات الأول على سطح الماء يترنمن راقصات..

جاءها النداء مِنْ النهر: اضطجعي على الرمال الرطبة حتى يرتوي جسدك، ومِنْ ثمَّ ينضح بالخصوبة والندى. واصبري حتى يفتق نور القمر براعم الروح، يا فتاة الجموح في نسق الجمال..

حاولت أنْ ترفع بصرها إلى النخلة لكنها غضت الطرف. استدارت قليلاً وأرسلت بصرها إلى مياه النهر تحت نور القمر. وشوشتْ صدرها نغمات الربابة الساحرة. أنصتت لبرهةٍ ثمَّ اضطجعتْ على الرمال.. رويداً امتص الجسد اليانع عبير النهر، وفتق نور القمر براعم الروح. دندنتْ بنغمٍ حزين، باحثةً بين ثنايا الذاكرة عن ربيع الفصول. وحين انطلق صهيلُ الروحِ إلى

العناق، نبتت شعيرات الشك بين مفاصل المعاني، رغم المحاولات العنيدة، لنقش اللغة الفريدة، في نسق الاشتعال. أنصتتْ عميقاً لهمسٍ يتسلل مِنْ منابع الأمومة. تسربلتْ بالحنين والنداء.. ارتعشت أطرافها فعقدت ساعديها على صدرها، ومع الشهيق والزفير خفق الفؤاد بالرجاء. التفتتْ وراءها، كانت الفروة سابحةً مع تيار النهر وعليها جلستْ الحبوبة غارقةً في الصمت، حائرةً بين سراديب النفس، تنبشُ مفاصل الحكاية، باحثةً عن منجم اليقين، حيث الحلم واقعٌ، والواقع ارتحال..

على الضفاف وقفت وحيدةً. غابت الحبوبة وصمتت أنغام الربابة الساحرة، وعادت الأمهات الأول إلى أعماق النهر. كان عبير اللقاح عابقاً مع النسمات الندية. انبثق مِنْ قلب سعف النخلة شعاعٌ باهر، غمر الضفاف. اكتملت طقوس الزفاف، وثمة احتمال..

في أتون الارتباك، وقفتْ حائرةً، واجفة الفؤاد.. أمامها خيطان مِنْ ضياءٍ شفيف، تولول وسطهما عطور الصندل، والمسك، والياسمين. وعندما تجلتْ الروح، وفاض الجسد بالأشواق الندية، نهضتْ إلى عناق الأبدية.. اختلج جسدها قبيلَ انزلاقها إلى حافة العناق، حيث رنينُ اللغةِ القديمةِ يداعبُ الصدور. وحينَ عجزتْ عن إدراك المعاني، شحذت بصيرتها وانتظرت على حافة التوقع..

غشيتها أنوارُ الحق
ارتعشتْ
حنَّ الفؤادُ
فتمَّ زواج القلب إلى القلب
وليس ثمة شهود
اللهُ حيٌّ معبود
وثمة ارتحال..

■■■

هل تحطمتْ الأشرعةْ
جفَّ النهرُ
وثكلتْ العصافيرُ
تحت سماءِ النزيفْ!؟

كانت سحبٌ خفيفةٌ رابضةً على أفق المغيب، بينما الأمواج الهيِّنة تضرب الشاطئ الرملي تحت قدميه. محجوب السر على الشاطئ شمال المصرف الكبير، وحيداً يحاول التقاط عبير المكان. وبينما أسراب الطيور تجوب الضفاف،

كان يقلّب بدماغه الأقوال المتداولة بين أهالي البلدة. تواترتْ الحكاية في أحاديث النساء، وبين تلميذات المدارس. زعم بعضهم أنَّ مريم بدر الدين ظهرتْ فجراً، شاهدها أحد المصلين وهو في طريقه إلى المسجد. كانت تنتحب فوق جذع النخلة المقطوع. وقالوا إنَّ فتاةً تسكن جوارهم سمعتْ النشيج قبيل الشروق، وحين وقفت أمام باب الدار، لمحتْ مريم بدر الدين تنحدر إلى النهر وعلى خديها دموعٌ غزيرة..

ليلاً ظلَّت تتجول على الشاطئ، شاردة الذهن تحدِّقُ إلى المياه. وعند السحر فاجأها صوتٌ غامض. ابتسمت، ثمَّ عربد بصدرها خوفٌ جامح، لكنها تماسكت، ثمَّ أنصتت والصوت يخرج من أغوار النهر: سيتم الوعد والميقات.. عندما ينتشر عبير الطلع، ويومض في الآفاق البريق الأخضر، ستصعدين إلى بعلك القديم، وتدركين سنة الأيام. وبعد شهورٍ تسع، سيبدأ خريف القبول، وتنجبين أنثى، تحت نخلة الشاطئ، فجراً، عند أول الخريف.. وقيل إنَّها وصلت إلى بيت الساقية قبيل الشروق. فحصت المرأة المريضة، والوحيدة بعد فرار سكان البيت الموبوء بالسعال والدم والنحيب. وقالت فتاةٌ مليحةٌ لزميلتها إنَّها حلمتْ ليلة البارحة: عند السحر كانت مريم بدر الدين تتجول وسط دروب البلدة، تجري الدموع على خديها، وتغني بصوتٍ يقطع نياط القلوب.

ظلَّ محجوب السر علي الشاطئ يخطط على الرمال اللينّة ويراود أفكاراً عصية. غابتْ الشمس ثمَّ شهقتْ لمرةٍ أخيرة، وتخضبتْ سحب المغيب برحيق الوداع. كان المساء الأخير قبيل أنْ يغادر البلدة. دندن ألحاناً وشبَّت بصدره الأشجان، ثمَّ عاد مِنْ النهر بنصف احتمال. كانت أمه في انتظاره حيث أعدت الشاي بالحليب والبسكويت وجلست تحدثه في شوق. سيعود إلى الغربة مِنْ جديد وتعود إلى وحدتها الموحشة، لتحصي نجيمات الصيف في انتظار غبار الشتاء. عاشة أم سُكُسُكْ بعد عودة ابنها سيطرت عليها رغبةٌ عارمةٌ في العودة إلى ديار أمها وأبيها، وقالت في نفسها: ((هل سأعود وحيدةً، ومتي؟ وهل ما زالوا أحياءً ينتظرون عودتي؟)).. هذا السؤال الحارق الذي ظلَّت تراوغه لعشرات السنين. كيف احتملتْ غربةً أنفقتْ فيها نضارة شبابها حتى ذبلت أنوثتها، وها هي في خريف العمر، كُتِبَ عليها أنْ تكابد انتظار ابنها في غربةٍ لا تبدو نهايتها قريبة.. عاد في إجازةٍ قصيرة، وحان ميقات رحيله مرةً أخرى. هل تتجاه ليبقى معها؟ ظلَّت فرحتها بعودته ناقصة، فكلما تذكرت ليالي الانتظار الماحقة حتى يرتعش وجدانها، لكنها تبتسم وترحب بالضيوف، وتكرر الدعوات للجيران. ظلَّ بيتها يستقبل الزوار لشهرٍ كامل. محجوب السر التقى بعددٍ من الشباب الذين لا يذكرونه، كانوا أطفالاً حين غادر البلدة. حاوروه عن إمكانية الهجرة وعن ضرورتها. كان معظمهم غير راضٍ عن وجوده في الوطن!! وينتظرون سانحةً للسفر. قال لهم: الغربة سلاحٌ ذو حدين، فبإمكانك أنْ تتعلم بشكلٍ جيِّد، وأنْ تعيش في مجتمعٍ منظم،

ولكنك ستظلُّ غريباً، تنخر الغربة في أعصابك وحيويتك. وكاد أنْ يقول لهم: وقد تفقد طعم الحياة ومعناها.. لكنه صمت. وحين سألوه هل ستعود لتستقر في الوطن؟ نبض بوجدانه نداءٌ غامض، وبعد صمتٍ أجاب: لست أدري!! كانت أخبار البؤس والشقاء، وجموع النازحين من الفاقة والاحتراب، قد حركت في ذاكرته أيامه المريرة في أقبية الأسر. أمه قالت له لماذا لا تبقى معنا؟ أجابها مبتسماً أنا هنا لا أملك عملاً ولن أجد فرصة، وهناك أعمل ويمكنني العودة في العطلات السنوية. وعندما سألته ألا تنوي الزواج؟ أجابها ربما قريباً. رفَّ بصدرها الفرح وقالت: هل تعرفت على فتاةٍ في الغربة وتريد الزواج منها؟ ضحك وقال: قريباً ربما أدعوك لزيارتنا.. رفَّ بصدر الأم نغمٌ ساحر لكن سرعان ما حاصرتها سهام الظنون. همَّ بأن يصارحها بعلاقته مع سارة أبراهام، وقال في نفسه: ((أليس مِنْ الواجب أنْ أصارحها الآن وأطلب موافقتها؟)).. لكن النداء الغامض طاف بخياله فآثر التريث، وقال في نفسه: ((سارة أبراهام منحتني الثقة والأمل، فهل سنتزوج لترى أمي حفيدها كما رغبت؟))..ثمَّ انداحت بخياله الأماني وسارة أبراهام سابحةٌ فوق غمام الأحلام. قالت الأم في نبرةٍ متفائلة: عندما تتزوج سأزورك، ثمَّ أضافت: وإذا رغبت في الزواج مِنْ هنا فهذا أفضل.. ابتسم، طمأنها وبصدره ألمٌ دفين. وقال في نفسه: ((ستعود أمي إلى وحدتها مرةً أخرى. حياتها هنا لا بأس عليها، كان ود العاقب رفيقها ولكنها بعد رحيله تعيش هموم الوحدة وقلق الانتظار))..هل سيعود يوماً ما ليعيش بقية حياته في الوطن؟ وانفجر بدماغه سؤالٌ ظلَّ مكبوتاً في صدره لسنوات: أين أهلها!؟

محجوب السر، هل عاد إلى البلدة ليستريح قليلاً مِنْ الغربة والارتحال!؟ أم لعله عاد ليلعق جراح الهزيمة!؟ ثمَّ ارتدَّ راحلاً يقوده نداءٌ مجهول.

كانحسار موجةٍ
غادر البلدة
بصدره ألمٌ دفين
ونبضاتٌ من الوجد الحارق
كأنَّه يرتِّلُ أناشيد الضياع
حلَّق بخياله في سماء الأشواق
تشدُّه رائحتها ورحيق عينيها
كانت سارة أبراهام
سابحةً فوق الغمام
كادحةً إلى آفاق العتمة
رفرف وراءها
بجناحين من رعشة الوصال
وحينما غابتْ في سديم الاحتمال

ظلَّ ينادي باسمها
فيحصدُ الصدى
وبعض أمنيات

وصل إلى أمستردام والنداء يراوده بلا هوادة. سارة أبراهام استقبلته بأحضانٍ مشتاقة، وقالت له: كيف حال الوطن وكيف حالها!؟ لمع بعينيها بريقٌ ماكرٌ ثمَّ أضافتْ: ألويل حجر السقا؟ أجابها: تزوجتْ وأنجبتْ طفلين. سحبتْ كفها مِنْ كفه وقالت: وبزواجها هل وئدت أحلام!؟ أجابها: ربما.. حدثها عن النداء الغامض والمهمة الكبيرة التي بانتظاره. ضحكت ثمَّ قالت: هل تمزح!؟ فقال بصرامة: أقول الحقيقة.. اعترتها الدهشة ثمَّ انحرفت بالحديث عن حالة الطقس، وعن مشاريعهما للمستقبل. ومع مرور الأيام ظلَّ معظم حديثه يدور حول النداء المجهول، حتى فاجأها ذات مساءٍ بأنَّه سيترك عمله هنا ليسافر إلى بريطانيا!! فقالت في نفسها: ((لقد عاد مِنْ وطنه مهووساً بفكرةٍ يجهلها، كأنَّما تقمصته روحٌ غامضة تقوده في طريقٍ مجهول)).. وحين سألها: النداء يشدُّني إلى هناك، هل سترافقينني؟ قالت له: كيف أترك عملي!؟ أنا هنا اشغل وظيفةً محترمة، وأنت تكافح بشكلٍ جيِّد، فما معنى أنْ نترك أعمالنا ونركض وراء السراب!؟ اختلست نظرةً إلى صفحة وجهه، فأدركتْ بغريزة الأنثى إنَّ عناده يخفي حاجته الملحَّة إلى صدرٍ حنون. وقال لها: ألويل تعيش مع طفليها في بريطانيا.. صمتت لبرهة ثم قالت: لماذا توهم نفسك!؟ إذا كنتَ تركض وراءها فأنتَ حر، فليس من حقي أنْ أعترض طريقك، ولن أتساءل عن مشروعية وجدوى علاقتك مع امرأةٍ متزوجة!! مِنْ يصدق إنَّ رجلاً يترك مكان عمله، والمرأة التي يزعم إنَّه يحبها، ليسافر إلى بلدٍ آخر، زاعماً بأنَّ نداءً مُلحاً يقوده إلى هناك!؟ متى داهمك هذا النداء للمرة الأولى؟ ولماذا أتى النداء تحديداً مِنْ المكان الذي تعيش فيه ألويل حجر السقا!؟ إنَّ الأمور واضحةٌ بما يكفي، فلماذا نراوغ!؟ كيف تدعوني للسفر معك ركضاً وراء الغيبيات على أحسن الاحتمالات، أو أنْ أكون ظلاً لامرأةٍ تشتهيها!؟ سيان عندي أنْ تركض وراء الغيب، أو أنْ تركض وراءها، فلست مِنْ الجهل في شيء كي أتبعك!! كيف أترك عملي والبلد الذي أعيش فيه مستقرةً لأتبع نداء مجهول!؟ دعنا نفترق هكذا ببساطة، وليحمل كلٌّ منا أحزانه وذكرياته. وقالت في نفسها: ((يتحدث عن مهمة كبيرة ويركض وراء امرأةٍ متزوجة!! هل سيطاردني الندم لأنِّي تعرفت عليه وعشت معه لحظاتٍ كانت تبدو سعيدة، أم ربما سأندم لأنني لم أصدقه!؟ ولكن بأيِّ عقلٍ يمكن تصديقه، وهل يجدي الندم!؟)).

كان وجدانه مطحوناً بالأسى حين قال في نفسه: ((أنا واثقٌ مما أقول. النداء يتواتر بصدري ولا بدَّ مِنْ الرحيل. وهذا لا ينفي مشاعري تجاه ألويل ولا يؤكدها. أما سارة أبراهام فلقد عاشرتها بصدقٍ رغم ومضات الحنين إلى

الذكريات القديمة. فإذا قبلت الرحيل معي فسأكون وفياً لإخلاصها، وإذا رفضت فليس لدي خيارٌ آخر، فالنداء يقودني على طريقٍ مرسوم)).. وقالت في نفسها: ((إذا استجاب لرجائي فسنكمل المشوار، أما إذا تبع أوهامه، أو نزواته، فلست نادمةً على ذكرياتي معه، ولست نادمةً على بقية الطريق)).. وقالت له: هل أحببتها حقاً؟ أجاب: ربما، وقال في نفسه: ((بلى)).. وكأنما قرأت ما يجول بخاطره، دندنت بصدرها الأسئلة: هل حانت لحظة الاختيار!؟ وهل ينتظرني حتى أغتسل منه!؟ حتى أستلَّ أشواك الشوق المغروزة بوجداني واحدةً إثر أخرى؟ وهل نبرأ مِنْ جراح النفس والأمنيات!؟ هل أخطأتُ في حقه؟ ولكن كيف!؟ أم إننا صعدنا إلى قمة الردى ثمَّ انحدرنا إلى الضياع!؟

بعد حواراتٍ وسجالاتٍ ودربكةٍ نفسية، ونشيج أرواحٍ عطشى للعناق، اتفقا على الفراق. في المساء الأخير كانت تحزم حاجياتها وتستعيد ذكرياتها وأسئلتها. وقالت في نفسها: ((بعد ساعةٍ أستطيع مغادرة الشقة، ولكن بعد كم مِنْ الشهور أو السنوات، يمكنني أنْ أنسى!؟ وهل بمقدوري النسيان؟ وهل هنالك ثمة ما يُنسى!؟)).. سارة أبراهام نقلت أمتعتها إلى شقةٍ جديدةٍ استأجرتها قبل أسابيع، لكنها ظلَّت معه في شقتهما المشتركة حتى يسافر. كانت قد أيقنت إنه سيرحل فآثرت أنْ تبقى إلى جواره. وعندما ترجاها كي تبقى معه في هذه الليلة الأخيرة، اعتصر قلبها ألمٌ عاصف. اعتذرت بلباقةٍ وقالت: مِنْ الخير لكلانا أنْ نجرِّب الفراق قبل أنْ يحدث، ولو بليلةٍ واحدة. غداً سأكون بانتظارك في محطة القطارات للوداع..

هل حانت لحظة التشظّي!؟

ترتب أشياءها الصغيرة وهو غارقٌ في تأملاتٍ مريرة. كلُّ لحظةٍ كانت تعني اقترابها مِنْ المغادرة. وراودته نفسه: هل ينهض ليقبلها قبلةً حارةً يودعها مكنون قلبه، وذكرياته، وأحلام المستقبل؟ وما جدوى العناق!؟ كأنَّ صافرة القطار ترِّن بأذنيه قبل انطلاقها بليلةٍ كاملة. هل نلتقي ثانية؟ سألها وبصره يهرب بعيداً. تنهدت عميقاً ثمَّ أجابت: ربما.. وقالت في نفسها: ((إنَّه يسلك دروب المجهول ويتركني وحيدةً وسط حيرةٍ عاصفة))..

ترتب أشياءها وتتراكم بصدره الأحزان، تغور لحظةٌ مِنْ الأسى في مكامن الحنين. ترتب أشياءها ويدنو الفراق.. لمح قطرتين مِنْ الدمع على خديها، وكأنَّه عانقها على شفيرٍ مسنون، يكابد الظمأ لرشفةٍ حنون، وكأنَّه يمشي على صراط الجنون!!
أيُّ فتاةٍ
وأيُّ لحظاتٍ

وأيٌّ شجون

عصف به إيقاع اللحظات إلى سحيق الأشواق، ينبش رميم التمني متسربلاً بالأحزان، وشبق الوصول إلى شواطئ الأمان. هل أصابه مسٌّ مِنْ الجنون، ليترك امرأةً عاشرها بالحسنى، ضمَّدتْ جراحات الأسر، ومسحتْ عن خواطره غيوم الأسى، وكابدتْ معه الأسئلة والاحتمال، مِنْ أجل نداءٍ مجهول!؟ وهل يملك قراراً آخر، أم أنَّها مشيئةُ الأقدار!؟ سارة أبراهام لطالما احتمى بها من هجير الغربة. كانت مرفأً في ليل حسرته الطويل. هل كان باستطاعته أنْ يستعيد بعضاً مِنْ توازنه النفسي لوحده، بعد فراره مِنْ الأسر عليلاً مِنْ ظلمات الأقبية والقهر والإذلال!؟ وقال في نفسه: ((أليس مِنْ الجحود أنْ أتركها وحيدةً؟ ولكني دعوتها لمرافقتي فرفضت دعوتي، وظنَّت بأنني أتبعُ نزواتي!! هل ما اقترحته عليها يمكن أنْ يُصدق!؟)).. كادت مرةً أنْ تصغي لوجدانها لكنَّ سلطان عقلها كان حاضراً. لكم تمنَّت أنْ تتوج أنوثتها بطفلٍ يكون ثمرةً للحبِّ والتضحيات. وقالت في نفسها: ((إذا أنجبتُ له طفلاً هل كان سيرحل وراء المجهول!؟)).. هل رحمتها الأقدار ولم تنجب مِنْ رجلٍ أحبته لكنه تبع نزواته؟ لقد رفض محاولاتها المتكررة في إصرارٍ عنيد، وقال لها: لست في حاجةٍ لزيارة الطبيب النفسي. عند وصولي إلى هذه البلاد كانت جراحي عميقة، ولكنك كنت حضناً ضمَّد نزيف الأغلال. وقالت في نفسها: ((هَبْ أنْ كلامه صحيح، وإنه منذورٌ لمهمةٍ كبيرة، فهل مِنْ العقل أنْ أتبعهُ دون أنْ أعرف طبيعة المهمة التي رسمتها له الأقدار!؟ لا.. لا يمكنني تعطيل العقل والركض وراء الأوهام. وإذا كان مريضاً بالفعل فهل مِنْ الصواب تركه وحيداً؟ وهل ستتحسن حالته النفسية إذا تبعته في أوهامه!؟))..

على قوس التردد مضت اللحظات وهي ترتب آخر حاجياتها وسؤالٌ مبرحٌ يلاحقها: هل ستبدأ حياتها من جديد؟ وهل ضيَّع الفتاة التي منحته مِنْ قلبها عصارة الحنين؟ تحاور معها فاتسقت أفكارهما أو كادتْ، وقطع معها أشواطاً حول الهوية والانتماء، وعاشرها في انسجام. هل خانها! أم أنَّ الأقدار اختارتها قرباناً للمهمة الكبيرة؟

عضَّت على شفتها السفلى. لبرهةٍ حارقةٍ تأمل وجنتيها النديتين، توهَّج بصدره برق الحنين، ثمَّ أبحر إلى مرافئ الشجون. هل النداء حقيقةً أم أنَّها سنوات الأسر الطويلة ما تزال تنحر في روحه!؟ وهل ضيَّعها وركض وراء السراب!؟ حين همَّت بحمل حقيبتها تنهَّد ثمَّ جمح بأفكاره علَّه يؤجل نشيج الوداع. عربدتْ بصدره موجات الأسى. اجتاحته الأشواق ومدد مِن الهمسات فقال في صوتٍ جريح: سارة أبراهام.. حين وضعتْ حقيبتها على كتفها تزلزلتْ اللحظة، ابتسمتْ، لوَّحتْ بكفها مودعة، ثمَّ انسلت خارجةً وتركته على قارعة الحنين..

بعد خروجها ظلَّ يدور داخل الشقة كطيرٍ جريح. كانت حقائبه جاهزةً للسفر صباح الغد. كانت الثلوج تتساقط في الخارج وتحت جلده لسعات الحريق. لوهلةٍ بدت له مسيرته في الحياة محض سراب. حاول أنْ يكتب سطوراً قليلة في وداعها لكنه قال في نفسه: ((وما جدوى الكلمات!؟)).. عندما حلَّ المساء كان يحدِّق إلى الفراغ ثملاً بالأسى، تغلي لحظاته على مرجل القلق. بغتةً ناوشته ابتساماتها الشاحبة قبيل أنْ تغادر الشقة، وقال في نفسه: ((هل بدأت دورةٌ جديدةٌ مِنْ الشقاء!؟)).. لكن النداء لم يلبث أنْ راوده فأزداد حيرةً. أطفأ مصباح الحجرة، وبين الحزن والارتباك أوقد شمعتين. سارة أبراهام، الألحان العذبة التي صدحت في بيداء وجدانه القاحل، هل سيختل توازنه النفسي بعد فراقها؟ هل هنالك ثمة احتمال؟ وبينما الشمعتان تحترقان في صمتٍ قال في نفسه: ((إنَّ العقبات تدفعنا للانتصار.. وهل كانت عقبةً في طريقي!؟ لا.. كانت حصناً أميناً، واحةً في هجير الحياة، وكانت كثيراً مِنْ لحظاتي معها صفاء، ولكن النداء!! هل كانت التضحية ضرورةً لتحقيق الأحلام!؟ وما ذنبها أنْ تسقط ضحيةً لنداءٍ أصاب آخرين!؟)).. سارة أبراهام، سحرُ الأنغام.. هل اختارتها الأقدار قرباناً للإلهام!؟

هل يبدأ رحلته مهزوم الخاطر، جريح الوجدان؟ احترقت الشمعتان وهو خاشعٌ يرتلُ في نفسه أنشودة الإياب إلى نشوة العناق. تواترت صورها بذهنه المكدود. عيناها الساحرتان، خصلاتها المتطايرة، والجسد الناهض على صهوات المجد والأنوثة. كانت بلسماً، ومرفأً، ونجمة اشتعال. هل كان باستطاعته لولاها أنْ يستعيد كثيراً مِنْ حيويته النفسية، وترتسم في الآفاق ملامح طموحاته الكبيرة؟ اشتعل بوجدانه شوقٌ دفين، فأبحر خيالاً إلى حضنها الأمين، وترقرقت في خاطر الفؤاد دمعة الحنين. وبينما الشمعتان تخفقان في النزعات الأخيرة، قبيل الهمود، دندن بنغمٍ جريح، ثمَّ ترنَّم بصوتٍ حزين. وحين اندسَّ في فراشه راودته رائحتها، لمساتها، صوتها، ورقتها الآسرة..

وكأنَّها تناديه مِنْ سحيق الوجد
مِنْ شهقة الشموس حين تلثم الضفاف
وكان صدرها منارة الزفاف
وعند خصرها
كانت الحروف
تغازل الندى
وكان فارس النهار خاشعاً
وضوء شمعتين ساطعاً
فوق الغمام يتبع الصدى..

■■■

هل كان ميقات المأساة رابضاً في سعيه الدؤوب لإدراك النداء الغامض، أم أنه كان فراراً من قدرٍ إلى آخر، أكثر شراسة؟

حين غادر القطار أمستردام في طريقه إلى الجزر البريطانية، كان محجوب السر يجلس هادئاً، وبصدره تمور الأسئلة والاحتمالات. وقال في نفسه: ((هل بدأت المهمة!؟)).. فكَّر في الصعوبات التي ستواجهه وفي مقدمتها الحصول على عملٍ وسكن. ومن ثمَّ الانطلاق في إنجاز المهمة التي يعتقد أنَّ القدر هيأه لها. لم تكن في ذهنه فكرةٌ واضحةٌ عن طبيعة ما سيقوم به، ولم يُجْهد عقله في التفكير. كان يراوده يقينٌ غامضٌ بأنَّه سيعرف في الوقت المناسب.

وصل إلى الجزر البريطانية آملاً في أنْ يستطيع طي صفحات الماضي، أو تحييده على الأقل؟ وحين وطئت قدماه أرض إنجلترا، رفَّ بوجدانه قلقٌ عابر، وقال في نفسه: ((هل وقعتُ في المصيدة!؟))..

ظلت تراوده الهواجس بأنَّه منذورٌ لقدرٍ عظيم. وكان يعتقد إنَّ تاريخه الشخصي، وما عاناه منذ الصغر، ما هي إلا صدماتٌ لصقل معدنه. وهو الآن يمتلك مِنْ الوعي، والتجارب، والصلابة، ما يؤهله للقيام بمهمةٍ جليلة. وقال في نفسه: ((هل تقودنا المشيئة الإلهية على دربٍ مرسوم!؟)).. كانت بعض الأصوات المكبوتة تطفو على سطح وعيه في أحيانٍ كثيرة: هل هي رحلةُ هروبٍ من هزائم شخصية، وتوهُّم لبطولةٍ لا يؤكدها الواقع، ولا يشير إليها!؟ نداءٌ غامضٌ ينقِّر مكامن الأحلام القديمة، فيزداد عزمه على المواجهة والتحدي. وكان يقول في نفسه: ((إذا لم أستطع مقاومة الهواجس، والخوف، فكيف أنجح في القيام بمهمةٍ كبيرة!؟ إنها طبيعة الوجود، لا بدَّ من المقاومة لتبدأ الحركة إلى الأمام))..

بعد بحثٍ يحدوه الأمل، تحصل على عملٍ في مخزنٍ لبيع الكتب. انهمك في المطالعة والتفكير.. وقال في نفسه: ((العلاقات الوجدانية الحميمة قد تعيق مهمتي التي لا تبدو في الأفق ملامحها، ولا إرهاصاتها، وقد تكون مفيدة))..مع الأيام تململت بوجدانه مفاصل الانتظار، وقال في نفسه: ((هل كان وهماً!؟ وهل فارقتُ سارة أبراهام سعياً وراء السراب!؟ ولكن النداء ما أنفك يراودني. هل من الضروري مقابلة الطبيب النفسي كما نصحتني في أمستردام؟ وإذا قرر الطبيب بأنني أعاني من الوساوس والأوهام! فهل

سيدفعني ذلك للعودة إلى هولندا، وهل تقبل عودتي؟ لا ليس وهماً ولا بديل سوى الانتظار))..

ويوم طفح بصدره الحنين، وتواترت أطياف سارة أبراهام، اشتاق لقياها، ولم يلبث أن عصفت به رغبةٌ جامحة لعناقها. ليالٍ قاسية في دوامة التردد، تناوشه الأحزان، ويشدّه الحنين إلى البلدة والأم، وأيام الصبا اليانعة. وقال في نفسه: ((العودة إلى أمستردام أيّاً كانت دوافعها ومبرراتها، ستقودني بالضرورة إلى نزوحٍ آخر. لا، لا بديل سوى الانتظار))..

تحت قهر الهزيمة لمعت على أفقه شرارة الاندحار. ومن بؤرة الحنين اختطفته دوامة القنوط. وقال في نفسه: ((هل كان وهماً؟)).. بين الأرق والتوجس رنّ بصدره النداء الغامض. ابتسم، نهض من مرقده متثاقل الخطى. فتح النافذة محاولاً أن يستشفّ ما وراء الغيوم، وما تختزنه الكواكب في السديم. اشتعلت بذاكرته سماء البلدة المطرزة بالنجوم. وقال في نفسه: ((هل تشير الأحداث إلى المقدمات الضرورية قبيل انبلاج فجر الخلاص!؟))..

على زورق الأحلام أمضى أياماً تراوده أطياف الأمل ثم تنبهم، ليدب بصدره ملل الانتظار. داخل حانةٍ صغيرة في حي هارلسيدين تعرّف على مهاجر من أفريقيا. في اللقاء الأول كان المهاجر سارحاً يقلّب صفحات أيامه الماضية. وفي المرة الثانية استقبله بابتسامةٍ بسيطة ودعاه إلى قدحٍ من البيرة. اعتذر محجوب السر وطلب فنجاناً من القهوة التركية. بدأ حديثهما عابراً عن حالة الطقس، ثم سأله المهاجر فجأة: هل قَدِمْتَ حديثاً إلى هذه البلاد؟ أومأ محجوب السر إيجابا، ثم تأمل المهاجر وقال في نفسه: ((ما تزال فيه ملامحٌ من وطنه القديم)).. وعندما توطدت العلاقة بينهما، انتظر أنْ يحكي له المهاجر عن أيامه الأولى في هذه البلاد، وعن عدد المهاجرين، وكيف كانوا يعاملون؟ لكن المهاجر ظلّ ينحرف بالحديث إلى الأخبار العامة، وحالة الطقس، وتقلبات المناخ العاصفة. وذات ليلةٍ ماطرة جلس المهاجر في مكانه المعتاد داخل الحانة الصغيرة، يرسف في أغلال الحنين، تلمع بعينيه أسئلةٌ عنيدة. في تلك الليلة علم محجوب السر بأنّ المهاجر وصل إلى هذه البلاد قبل ثلاثين عاماً. وبعد خمس سنوات من وصوله تعرّف على فتاةٍ هادئة كانت تعمل في حانةٍ صغيرة. أمها ايرلندية من بلفاست، وأبوها من النمسا. رافقته لسنوات، قبل الزواج قال لها: أنا غريبٌ في بلادكم فمن الخير لنا أن نفترق.. ابتسامةٌ حائرة ارتسمت على شفتيها ثم قالت: كلنا غرباء في هذه الحياة.. تزوجها وأنجبت له بنتاً وولداً، ثم افترقا بعد تسع أعوام من الزواج. وهو الآن يعيش على راتبه التقاعدي، يلوك الوحدة ويجتر الذكريات. حين لمعت الحيرة بعيني محجوب السر قال المهاجر بصوتٍ محايد: عن ماذا تبحث يا بنيّ في الدار الغريبة، من الخير لك العودة إلى الوطن، فأنت ما تزال شاباً

وتستطيع بناء حياتك مع أهلك. ابتسم المهاجر في مرارةٍ ثم أضاف: لقد قضيت عمري غريباً في هذه البلاد، ولكنها وطنٌ لأبنائي، ولولاهم لقلت إنني لم أحصد سوى الهشيم.

وسط دوامة الحنين، عاش المهاجر وحيداً، حائراً يناوشه السؤال: هل يعود إلى دياره وأهله، ومتى؟ وذات مساءٍ مليءٍ بالغيوم، جلس في مكانه المعتاد داخل الحانة. تفتقت بوجدانه رغبةٌ ملحّةٌ ليحكي، لكن محجوب السر لم يحضر في ذلك المساء. تأمل المهاجرُ فتاةً مليحةً توزع الأقداح بينما ذاكرته تنبش أيام الطفولة:

في أفريقيا جنوب الصحراء كان يرعى الغنم مع أنداد الطفولة. كانوا يخرجون في الصباح الباكر من بيوتهم المتناثرة. يقودون أغنامهم لترعى العشب الأخضر، ويتفرقون تحت ظلال الأشجار الندية. في الخريف كانت تتجمع بركةٌ واسعة وسط البيوت. تهاجر إليها الطيور وتسبح في المياه المنحدرة من الوديان، وتغرد العصافير الملونة. كم أحبوا الفراشات بألوانها الزاهية، يطاردونها من غصنٍ لغصنٍ ويضحكون. وذات ضحى تركوا أغنامهم ترعى ونزلوا إلى البركة عراة، يتراشقون بالماء ويتصايحون. وسط لهوهم سمعوا صرخات الطيور، وأجنحتها ترفرف هرباً من هديرٍ يأتي من بعيد، ولم يلبثوا أن أصاخوا السمع لصوت سيارةٍ قادمة. كانت المرة الأولى التي يشاهدون فيها كتلةً من الحديد تتحرك مسرعة. صرخ بعضهم هلعاً وتسمروا في المياه الضحلة، يرتعدون من الخوف. وكلما اقتربت السيارة ازداد الخوف. طفلٌ صغير بال لا شعورياً على حافة البركة وبصره مشدودٌ إلى الآلة المتحركة. توقفت السيارة قريباً منهم ونزل منها رجلٌ غريبٌ يحمل آلة تصوير، وسرعان ما لحق به زميله. أشارا للأطفال بالتحية، اقتربا منهم والتقطا عدداً من الصور. قدما للأطفال قطع من الحلوى لكن الصغار ظلوا متوجسين، تسمروا عند حافة البركة يتبادلون النظرات.

ويوم وصلتهم السيارات الحكومية التف حولها الأهالي يتصايحون ويشيرون إلى ركابها من بعيد. اجتمع وفد الحكومة مع زعيم القبيلة وعدد من مساعديه. طلبوا منهم عدم اعتراض الشركة القادمة للتنقيب عن النفط. كان عليهم أن ينزحوا من ديارهم ومراعيهم لتتمكن الشركة من تشييد معسكر العمل. وعدهم رئيس الوفد الحكومي بالمياه النقية، حتى ترتاح نساؤهم من جلب الماء من مسافات بعيدة، أيام الصيف القائظ، وبناء مدرسة في مقرهم الجديد. شكر زعيم القبيلة وفد الحكومة وقال لهم إنه لا يستطيع الموافقة على طلبهم قبل أن يستشير حكماء القبيلة. انقسم الأهالي بين الرفض والقبول. حكماء القبيلة نصحوا الزعيم بقبول عرض الحكومة بعد أن يأخذ منهم عهداً بتنفيذ ما وعدوا به.

شُيِّد معسكر كبير تضيئه ليلاً المصابيح الكهربائية. اجتاحت الآليات الهادرة الهدوء المخيم فوق المكان منذ القدم. حفروا آبار النفط وشعلة نارية تنفث الدخان الأسود إلى الفضاء. بعض فتيانهم وجدوا عملاً مع القادمين الجدد. فتاةٌ صغيرة أنجبتْ طفلاً أسمر اللون، أزرق العينين. ومع الأيام تسرَّب النفط المخلوط بالماء إلى المراعي. مساحات واسعة أصبحت جرداء، لا تخضر أيام الخريف. ظلت ماكينات الشركة تقطع مزيداً من الأشجار، وتحفر الآبار، وتتسرب المياه الملوثة بالنفط إلى الوديان.

جأر الأهالي بالشكوى تلفهم الحيرة. أصاب جلودهم داءٌ غامض لم يعرفوه من قبل، وفشلت محاولاتهم في العلاج بالأعشاب. وعندما هلكت قطعان الأبقار والأغنام، وطفحت مياه البرك بالطيور النافقة، قرعوا الطبول في تواترٍ محسوب، لاستدعاء أفراد القبيلة المنتشرين في الوديان والسهول. قُرِعتْ الطبول وحمي الرقص. ذبحوا ثوراً وغمَّسوا رماحهم في دمائه، ثم رفعوها إلى السماء. الزعيم الروحي قال لهم إن أرواح الآلهة غاضبة لأنَّ بعضنا ارتكب خطيئةً كبيرة، فنحن لا نقتل، ولا نكذب، ولا نسرق، ولا نسيء إلى الغرباء. وقال لهم: اجتمعنا لنكفِّر عن خطايانا، علَّ أرواح الآلهة أن تقبل توبتنا، فتعود إلى أجسادنا الصحة، وإلى مراعينا الخضرة.

قرعوا الطبول وأنشدوا الأغنيات. كان الرجال يضعون على رؤوسهم قرون الأبقار، ويرتدون جلود الحيوانات المفترسة. رقصوا حتى الصباح لكن مراعيهم ظلت جرداء. عجوزٌ قالت: إن الغرباء جلبوا معهم اللعنة، وأزعجوا أرواح الآلهة. وبددوا الهدوء الذي رافقهم منذ نشأتهم الأولى..

وكلما أوغلوا في النزوح كانت الآبار تطاردهم، والنفط يتسرب إلى المراعي والبرك. وبعد سنوات هجروا أرضهم التاريخية، واستقروا على ضفاف نهرٍ موسمي، وتعلموا صيد الأسماك. بيد أن لعنة النفط لاحقتهم ولوثت مياه النهر، فطفحت الأسماك النافقة على سطح المياه. حاصرهم الجوع والأوبئة ففروا إلى البعيد. بعد أشواطٍ من النزوح وصلوا إلى ميناءٍ صغير على المحيط الأطلسي. سكن المهاجر مع عشيرته في أكواخٍ متلاصقة شيَّدوها على عجلٍ في أطراف المدينة. حيث تناوبت عليهم أسراب الذباب نهاراً والبعوض ليلاً. تسلل المهاجر مع بعض رفاقه الصبيان إلى الميناء، وعمل في تلميع الأحذية. تعلَّم قليلاً من اللغة الإنجليزية، ولما اشتد ساعده عمل حمالاً في الميناء، ولم يلبث أن حملته السفن إلى السواحل البريطانية.

بعد غيابٍ قصير التقى محجوب السر بصديقه في الحانة. كان المهاجر غارقاً في الأسئلة والأحزان. وحينما سأله عن أحواله أجاب: ابنتي سافرت

إلى أميركا. تعرَّفتْ على شاب عبر الانترنت. قبل شهر زارها وتزوجا.. صمت المهاجر، ارتشف قليلاً من قدحه، سرح بخياله إلى الطفولة ثم أضاف: هاجرت معه إلى ولاية كاليفورنيا.

انقطع محجوب السر عن الحانة وما انفكت أطياف سارة أبراهام تراوده بين الحين والآخر. وذات مساء بينما كان عائداً من العمل، قرأ خبراً في صحيفة قدح في دماغه شرارة السؤال. بعد لحظات من التفكير، عاد إلى الصحيفة وقرأ الخبر مرةً ثانية:

باتريك جونسون طالب كلية الاقتصاد بجامعة لندن. أبوه مهاجر من غرب أفريقيا، وأمه ايرلندية.. كان أول المساء حين غادر حديقة ريغينتس، وعلى حافة شارع البرت وجدوه مقتولاً وخيوط من الدم تلطخ الرصيف.

وضع الصحيفة جانباً وقال في نفسه: ((ابن المهاجر مات مقتولاً، يا لها من مأساة))..

في إحدى قاعات جامعة لندن كان الحزن شفيفاً والأسئلة حائرة. كانت صورة الفتى المغدور موضوعة على منصة عالية، في إطارٍ أسود وحولها أكاليل الزهور. في قاعةٍ كبيرة اجتمع بريطانيون، ومواطنون من أصولٍ هندية وباكستانية وأفريقية. مسلمون ومسيحيون، هندوس ولا دينين. كان الحدث الفاجع قد هزَّ ضمير المدينة وتداعت أسئلته إلى جميع القارات.

محجوب السر جلس في الصفوف الخلفية. من بعيد تطلع إلى صورة باتريك في إطارها الأسود. همَّ بالنهوض والتقدم إلى المنصة. تملكته رغبة قوية ليرى عيني الفتى، عسى أنْ يجد إيحاءاً أو إجابة عن أسئلةٍ ما انفكت تطنُّ بدماغه.

المهاجر والأم والأخت يجللهم السواد جلسوا جانباً في الصف الأول، وحولهم جلس أساتذة الجامعة، وعضو البرلمان عن دائرة المنطقة، وزملاء الفقيد طلاب كلية الاقتصاد بجامعة لندن.

اعتلى منصة الخطابة عميد كلية الاقتصاد. رجلٌ قصيرٌ بدين، أصلع الرأس. كانت تعابير وجهه تنمُّ عن ألمٍ عميق، وبعينيه بريقٌ متقطع. بدأ خطابة ونبرات صوته مفعمةٌ بالأسى. تغلغلت كلماته الأولى في صدور الحاضرين. ولم تمض لحظات حتى خيمَّ فوقهم صمتٌ حزين. ومن بين ثنايا الانتباه واصل العميد كلمته قائلاً:

باتريك جونسون طالب كلية الاقتصاد، دفع حياته ثمناً لترسيخ قيم التسامح والمحبة والسلام. كان متفوقاً أكاديمياً ورياضياً طيب المعشر. كانت حياته تجسيداً للقيم الحضارية التي نؤمن بها جميعاً، وندافع عنها. قيم التعايش والسلام، هي الملاذ الوحيد للبشرية من فوضى الاحتراب، ونذر الفناء..

ظلت الأم وابنتها تنتحبان بصوتٍ خافت، بينما المهاجر غائرٌ في درك من الأحزان. كأنَّ غشاوة زالت عن بصره، وقال في نفسه: ((كيف عشت عشرات السنوات دون أن أعود إلى بلدي وأهلي!؟)).. وكأنه ورث أحزان الدنيا والعالمين، غاص عميقاً في أتون النحيب.

فتاة شقراء نحيلة اعتلت المنصة، توهَّج الحزن بعينيها ثم اغرورقت الدموع. طافت بذاكرتها لحظات من الماضي القريب، في مدرجات كلية الاقتصاد، وتحت ظلال الأشجار. باتريك جونسون كان زميلها في الكلية، وصديقها في المرح والهم كما كانت تقول. استجمعت شظايا أفكارها وقالت بصوتٍ متهدج:

عاش مبتسماً بشوشاً.. خنقتها العبرات لكنها واصلت: ومات مغدوراً!! اغتاله شبابٌ طائشٌ اعتملت في صدورهم العنصرية البغيضة. صمتت لبرهةٍ ثم أضافت: لن أحدثكم عن جراحي الخاصة، لكن حياتنا معاً كانت تجسيداً للاحترام والحب والتسامح.

فتاةٌ متوثبة وقفت على المنصة. عرَّفت نفسها قائلة: شارلوت وليامز، محامٍ وناشطة في الدفاع عن حقوق المهاجرين.. بدأت حديثها بكلماتٍ هادئة ورويداً ارتفعت نبرات صوتها:

إننا جميعاً بمختلف أعراقنا وديانتنا نؤمن بالكرامة الإنسانية، وحق الفرد في العيش حراً كريماً. لا مستقبل للبشرية إلا في قبول الآخر، والاعتراف بالتعدد الإثني والديني، ووحدة المصير الإنساني..

مع نهاية حفل التأبين تحلق عدد من الحضور حول العائلة الحزينة. محجوب السر صافح صديقه المهاجر معزياً، ثم صافح الأم والبنت التي عادت من أميركا للمشاركة في تشييع أخيها. اختلس نظرةً إلى البنت الحزينة ثم تقدم إلى الصورة في إطارها الأسود. وقف أمامها محدقاً، مبحراً في العينين الساهمتين. اقتربت منه شارلوت وليامز فتململت تحت جلده شهوةٌ طارئة. أومأ إليها برأسه فابتسمت، أبرقت بعينيها إشاراتٌ مبهمة. هل انتاشتها رعشة الغرام!؟ وهل ترصَّد خطاها بعد ذلك اللقاء؟

في ميدان الطرف الأغر كان صريحاً معها حين قال: تركتُ حبيبتي في أمستردام.. لمع السؤال بعينيها فأضاف: كان رحيلي للضرورة.. تسربل وجهها بالحيرة واتقدت جذوة الأسئلة بعينيها، بينما واصل حديثه في هدوءٍ حذر: كانت ملاذ.. وبعد طول مراوغة انطلقت الحروف من صدر شارلوت وليامز: ولكنك تركتها وحيدة!! أجاب في نبرة تبدو محايدة: قد يكون هذا صحيحاً، نظرياً على الأقل.. صمت وهرب ببصره بعيداً ثم أضاف: كان حتماً عليَّ الرحيل.. ضحكت وتحول بريق الحيرة بعينيها إلى حنينٍ فياض. بدا لها مرتبكاً فتحركت بين جوانحها الشفقة، وقالت في نفسها: ((هل أستطيع مساعدته؟ وهل يحتاج أصلاً للمساعدة!؟ لم يكن كلامه عابراً، إنه يحدثني عن همومٍ قلبه كصديقٍ قديم. كيف وثق فيَّ بهذه السرعة!؟))..

ومع دورة الأيام مضت علاقتهما عادية. في البداية ظنَّتْ أنَّ القدر كافأها على حرصها وصبرها، وزادت الأيام في قناعتها بأنَّها اختارت الطريق الصحيح. وقالت في نفسها: ((إنَّه يسرح كثيراً.. ربما هي تجاربه السابقة، ولكنه سيسلك الطريق لأنَّه يؤمنٌ بما يعمل)).. هل يشير الجسد إلى الحقيقة تماماً كما تفعل الروح!؟

رفَّ بوجدانها نغمٌ غريب. ثمة نداءٌ يدعوها للابتعاد عن هذا الطريق. نداءٌ متواترٌ عنيد، لكنها قالت في نفسها: ((لن أحيد))... بدا لها أول الأمر لا مبالياً، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى أدركتْ، أو توهَّمتْ بأنَّه صاحب قضيةٍ يعمل مِنْ أجلها. حدَّثها عن وطنٍ مظلوم، وعن شعوبٍ ترزح تحت الجهل، والقهر، والمسغبة. فقالت له: قضية الإنسان في كلِّ مكانٍ واحدة، وهي الحرية. وقال لها: لكي ندرك الحرية علينا القضاء على الجهل والفقر والمرض. هتفت برنة الانتصار: إذن فقضينا واحدة، لنعمل معاً مِنْ أجل حرية الإنسان.. أحنى رأسه موافقاً ثم رمقها بنظرةٍ حائرة..

وفي مطار هيثرو كان في وداعها وهي في طريقها إلى نيويورك، لحضور مؤتمر حول المهاجرين، والتشريعات الجديدة التي أقرتها البرلمانات في بعض الدول الأوربية، وما زال الجدل دائراً حولها في الولايات المتحدة الأمريكية.

هرعت سيارات الإطفاء والإسعاف وأغلق المطار!! قيل إنَّ قنبلةً أو سيارةً ملغومةً اخترقت الحصون الأمنية. وقيل إن صاروخاً كاد أن يُسقِط طائرةً مدنية. وتردد إنهم الإسلاميون المتشددون، سدنة الإرهاب والخراب.

في طريق العودة من المطار شدَّ على كفها وقال: لا تقلقي، ستمر العاصفة بسلام.. ابتسمت وقالت في نفسها: ((في الصدور تعتمل الضغائن

والأحقاد ولكن! هل يُولد الإنسان طيِّباً أو شريراً؟ أم أنه يكتسب الخير أو الشر من البيئة الاجتماعية التي ينشأ فيها؟ وهل يُولد بعض الناس أكثر قابلية لاكتساب الخير أو الشر؟ وهل هناك قوةٌ عاقلةٌ حكيمة، تدير الكون في حياد؟))..

أغلقت بعض شوارع لندن وخلت محطة كنق كروز من الركاب. تواترت الأنباء ولزم الجميع بيوتهم، بعدما أعلنت وزارة الداخلية عن رفع درجة الخطر إلى الدرجة القصوى تحسباً لهجمات قد تقع. وطالبت المواطنين بالحذر والإبلاغ عن ما يثير الارتياب.

في طفولتها رافقت أمها إلى الكنيسة، وعندما بلغت سن الشباب أصبحت علاقتها بالدين غامضة، فهي لا ترتاد الكنائس ولا تؤدي الصلوات، ولا تكترث للخطأ والصواب بالمعايير المسيحية، لكن قلبها يعتمل بالخوف المبهم، والقلق والرجاء. محجوب السر قال لها: الظلم يسود العالم ولا بدَّ من العمل لإرساء قيم العدالة.. سألته وبعينيها بريقٌ ماكر: هل تؤمن بالله؟ بعد صمتٍ قصير أجاب: غض النظر عن إيماني بالله فأنا أنشد عدالة الأرض، لأنَّ عدالة السماء تبدو بعيدة المنال، أو مستحيلة.. حين كررت سؤالها رد عليها متسائلاً: وأنتِ هل تؤمنين بالله؟ فكرت لبرهةٍ ثم أجابت: لست أدري.. فرد ساخراً: ومن يدري!؟

في خضم الحوارات الشائكة جرفتهما دوامة من الأشواق الجسدية الطاغية، ورغبة عارمة في حياةٍ مشتركة من أجل الدفاع عن حقوق الإنسان. على أحضانها غازلت وجدانه أطياف الأمل، بينما ذكرياته الوجدانية تزاور على حواشي القلب، والهواجس ما انفكت تراود الاحتمال.

تزوجا، ومضت الأيام هادئةً أو تبدو كذلك. ويوم أنجبت طفلة سمراء غمرتها أمواج السرور، وتفتقت بوجدانها ينابيع الأمومة. وقال في نفسه: ((شارلوت وليامز انتشلتني من قارعة الوهم إلى صراط الأمل ولكن!! هل سأعيش غريباً في هذه البلاد؟ وإلى متى؟))..

على جمر التوقع
ولهيب الاحتمال
تململ بصدره رفيف الألحان القديمة
خرج إلى الشوارع والأرصفة
باحثاً عن ظلال امرأةٍ
كان يعشقها..
فهل أدركه النداء!؟

■■■

قطرةٌ في أثر قطرةٍ والآفاق كثيفة الغيوم. فاضتْ الأنهار والبحار، وانهمر المطر المدرار. بعد سبع ليالٍ وثمانية أيامٍ مِنْ نزيف الأرض والسماء، ارتفع الموج إلى أعالي الأشجار، ثم غمر الجبال الراسيات الشوامخ.. هل تهيأتْ الأرضُ لدورةٍ جديدة، ولاحتْ في الأفق ملامح الطوفان؟ طوفانُ الأسئلةِ والمعلومات. طوفانُ البشر الباحثينَ عن الحريةِ والسلام!؟

داخل قفص الاتهام جلس ثلاثتهم: محجوب السر وعلى يمينه فتاةٌ آسيوية وأخرى أوروبية. كانت قاعة المحكمة قد امتلأت بالصحفيين والمصورين وشبكات التلفزة..

محجوب السر عاش على أملٍ غامض، منذ وصوله إلى الجزر البريطانية. وذات مساءٍ وهو عائدٌ مِنْ العمل راوده النداء. كان المطر ينهمر حين دلف إلى مقهى صغير، شيءٌ ما دفعه للرجوع خطوتين بعدما تخطى الباب. توقف لبرهةٍ ثمَّ دخل ليشرب فنجاناً من القهوة. كان الضوء خافتاً، وحين قصد طاولة منعزلة تردد بوجدانه نبضٌ متلاحق. هل بدأت المهمة!؟ وقبل أنْ يفيق مِنْ السؤال الحائر، تقدم إليه رجلٌ في خريف العمر. نحيلٌ قصيرٌ، ضامر الوجه، عيناه كبيرتان وغائرتان في محجريهما. حياه الرجل بإيماءةٍ مِنْ رأسه الضخم ثمَّ استأذن ليجلس قليلاً. استقبل الرجل ببساطة ودعاه إلى كوبٍ من القهوة أو العصير، لكن الرجل اعتذر بصوتٍ خافتٍ ثمَّ أضاف: نادراً ما أرتاد المقاهي والحانات، كنتُ أنوى الخروج عندما لمحتك تدخل وتجلس وحيداً، أرجو أنْ تسامحني.. صمت الرجل ولمع بعينيه بريقٌ غامض، ثمَّ سأل محجوب السر عن تاريخ ميلاده فأجابه. فكَّر الرجل لبرهةٍ ثم قال: أنت مِنْ مواليد برج الثور، تقودك طموحاتٌ كبيرة.. وحين صمت مرةً أخرى، سأله محجوب: وهل تتحقق؟ مَنْ يدري؟ أجاب الرجل ثمَّ أضاف: رؤيتك للأشياء ثاقبةٌ ولكني أرى الأفق غائماً.. اعتذر الرجل للمرة الثانية، استأذن وغادر الحانة بينما محجوب السر يلوك الأسئلة والاحتمالات. وذات نهارٍ وهو داخل عربات القطارات الجوفية انبثقت الفكرة في دماغه، وقال في نفسه: ((سنغرق العالم المتحضر بطوفانٍ مِنْ البشر!! زحفٌ حثيثٌ حتى يرث الفقراء شقاء أسلافهم وآلامهم. نعم اتضحت المهمة ومِنْ السهل العثور على الخيط الأول))..ظلَّ لشهورٍ يفكِّر ويخطط. وقال في نفسه: ((إنها المهمة التي لا تنتهي إلا مع نهاية الظلم، وانتصار الفقراء. ستنمو الشبكة مِنْ أدغال أفريقيا وآسيا، ومِنْ سهول أمريكا اللاتينية إلى كل العالم الذي يعيش سعيداً كما يتوهَّم. ستتواصل مسيرة الفقراء ظافرةً وتخترق كلَّ الحواجز والحدود. إنَّها مهمةٌ تدعمها الطبيعة ليتوازن التاريخ. نعم اختارتني الأقدار لمهمةٍ كونية))..

أصبحت خطة الهجرة هاجساً يراوده ليل نهار. كان يقلّب أفكاره في ذهنه دون أنْ يكتب حرفاً واحداً، أو يرسم تخطيطاً. وقال في نفسه: ((في الوقت المناسب سأنجز على الورق، ثمَّ على الكمبيوتر جوهر الفكرة وتفاصيلها))..
كان ينقب عن المعلومات ويرتب الأفكار. اعتمدت الخطة على الزحف مِنْ الجنوب إلى الشمال، والصعود مِنْ قاع المدينة إلى أعلاها، وتجنيد الأفراد الذين يناضلون مِنْ أجل خلاص العالم، لصالح مشروع الفقراء، وتكوين الخلايا لاستقبال المهاجرين وتأهيلهم للانخراط في المجتمع الجديد، وتكوين الخلايا في جميع أصقاع العالم لربط المهاجرين بفكرة انتصار الفقراء بالزحف العنيد.

منذ البداية تزعم محجوب السر الحركة الوليدة، وكان يعتقد إنَّ العصابات التي تعمل في تهريب المهاجرين مِنْ أجل المال، يمكن توظيفها لخدمة أهداف الحركة، وكذلك التنظيمات الإقليمية، وحتى الدينية. وقال لزملائه: إنَّ هدفنا أسمى مِنْ الجميع، سيادة الفقراء وقهر العوز. إنَّها هجرةٌ مجيدة.

في السنوات الأولى سارت الأمور ببطء ثمَّ تعثرتْ. بعض الخلايا تمَّ اكتشافها، لكن شبكة الهجرة المجيدة واصلت عملها. كان الإنترنت أحد أنجع وسائلهم في إدارة أعمالهم والتمويه عليها، وكان بعض أعضاء الشبكة يعملون على نشر التقنيات الحديثة، وتجنيد الطلاب بعد تدريبهم للعمل لصالح الشبكة، ريثما يتم تهريبهم بعد أنْ يجندوا عدداً مِنْ الأعضاء الجدد يحملون الراية لتوسيع دائرة المعرفة، والإيمان بحق الفقراء في ميراث الحضارة الإنسانية. في الأصقاع النائية كانت أفكارهم تتداول شفاهةً، ويستخدمون التراث المحلي للدعوة إلى قضيتهم. يرددون الأناشيد الحماسية، والحكايات الأسطورية التي تحكي عن معاناة الإنسان منذ فجر التاريخ: أنتَ مظلومٌ إذن فأنت على حق. انهضْ، تسلَّحْ بالمعرفة فأنتَ الأجدر بالحياة الكريمة، وقبل رحيلك عليك أنْ تستنهض عدداً مِنْ الفتيان والفتيات.. إنَّ الاعتقاد في الانتصار النهائي هو جوهر الدعوة. انهضْ لقهر الظلم وسيادة العالم..

ظلَّ محجوب السر يختلس نظراتٍ سريعةً إلى ألويل حجر السقا الجالسة في الصفوف الأمامية. كان قد لاحظ وجودها عند دخوله إلى قفص الاتهام، كأن حاسةً ما قد لفتتْ انتباهه إليها. التقتْ نظراتهما مراتٍ وبينهما سؤالٌ حائرٌ، وبعض رجاء. وقال في نفسه: ((هل خانتني الأقدار!؟))..

بعد أنْ قرأ ممثل الاتهام عدداً مِنْ الوثائق أشار إلى محجوب السر قائلاً: قبل سنواتٍ تقدَّم هذا المتهم الماثل أمامكم، بطلبٍ إلى وكالة الهجرة التابعة للأمم المتحدة، وكتب في طلبه: تعرضت للظلم في بلادي، أطلب اللجوء إلى

بلدٍ يحترم الإنسان حتى تتبدل الأحوال في بلادنا. استقبلته أوروبا. درس الاقتصاد السياسي في أمستردام، وتحصل على وثيقة هولندية، ثمَّ انتقل إلى انجلترا ليبدأ نشاطه الإجرامي. إنَّ المتهم الماثل أمامكم تنكَّر للحضارة التي منحته فرصة العيش الكريم في بلادٍ راقية، بيد أنَّه بادل العطاء بالجحود!!

على مقعدها تململت شارلوت وليامز والأسئلة تنحر وجدانها بلا هوادة. وقالت في نفسها: ((هل خسرتُ الرهان!؟)).. خطفت نظرةً عابره إلى محجوب السر القابع داخل قفص الاتهام، ارتعشت وناوشتها الذكريات:

على فراشهما المشترك كانت الظلمةُ خفيفةً وهو عارٍ وغارقاً في أحلامٍ بعيدة، بينما كانت تقلِّبُ أفكارها. ربما هي المرة الأولى التي حققت فيها الاتساق الجسدي وربما النفسي عند ذروة اللذة. ثمَّ ماذا بعد صهيل الجسدين على مرجل النشوة والأشواق؟ مرةً أخرى رفَّ بوجدانها ذلك النداء فقالت في نفسها: ((محجوب السر لم يتبدل لكنه يخفي أمراً ما!! نظراته تقول ذلك، لم يعد كما عرفته)).. سألته بطريقةٍ عابرة عن ما يشغل تفكيره ولا يريد أنْ يبوح به؟ ابتسم فناوشتها أحاسيسٌ مبهمة، وقالت في نفسها: ((هل ابتسم تهكماً؟ ولكن لماذا؟)).. داعب ظهرها قائلاً: لا تقلقي أنا بجانبك.. وبعدما عرفت الحقيقة، ظلَّت ردحاً مِنْ الأيام تلعق رحيق اللذة مِنْ ذاكرةٍ ممهورةٍ بالسؤال. قالت له: إنَّ دفاعنا المبدئي عن المهاجرين لا يسمح لنا بأنْ نسهم أو نشارك عصابات تهريب المهاجرين. إنَّ الغايات التي نسعى لتحقيقها، هي اعتماد القوانين، والآليات التي تمكِّن المهاجرين مِنْ الحصول على حق العيش بكرامة، في مجتمعٍ قُدِّرَ له أنْ يقود ركب التقدم الإنساني. أجاب بنبرةٍ هادئة: إنَّ السياسات الاستعمارية أسهمتْ في خلق الظروف التي تُجْبِرُ الملايين على مغادرة أوطانهم، والمغامرة في دروب الهلاك. فإذا آمنا بحق الملايين في البحث عن حياةٍ مستقرة، فما المانع مِنْ مساعدتهم لبلوغ غاياتهم؟ ما هو جوهر الأخلاق إنْ لم يكن العمل على تمليك الجميع حق الحياة بإرادةٍ حرة!؟ فإذا أسهمنا في تكبيل الملايين وتركهم في أتون الجهل والمسغبة!! فما معنى الأخلاق، وما جدواها!؟ ستزداد وتائر النزوح ما دامت أسبابها موجودة ومتفاقمة.. قالتْ له في نبرةٍ بدتْ محايدة: فلنحتكم إلى المبادئ. خرق القانون عملٌ لا أخلاقي ولا حضاري.. ابتسم في سخريةٍ مريرة، وتسلل الانفعال إلى نبراته: أيِّ أخلاقٍ تلك التي تحاصر الملايين في هوامش البسيطة!؟ هل ستقودنا لعبة الأخلاق هذه إلى عدالةٍ إنسانية، أم إلى قانون الغاب!؟ وقالت له: إذا كنت تعتقد إنَّ ما تقوله صواباً، فلماذا لم تصارحني منذ البداية؟ أليس هذا دليلاً حاسماً على أنكَ ضالعٌ في الجريمة!؟ مضت لحظاتٌ وهو صامتٌ كأنَّ الكلام لا يعنيه، ثمَّ أجاب بنبرة التحدي: طبيعة المهمة التي نؤديها حتَّمت علينا العمل سراً، ولقد كانت تقديراتي صائبةً

بإخفاء الأمر عنك، وها قد علمتِ فماذا ستفعلين؟ ستشهدين ضدنا أليس كذلك؟ أجابت بحزم: بلى.. فقال لها بهدوء: هذا حقك..

هل خطط منذ البداية لاستغلالها في مشروعه؟ كيف استطاع أنْ يمدد نشاطه إلى كل بقاع الأرض وهي بجانبه لا تدري شيئاً، رغم دقتها ونظامها؟ بل هي على أحضانه تعطيه مِنْ كيانها وروحها. أيهما أقسى على قلبها، أحزانها الشخصية أم الهواجس التي ظلّت تطاردها وترسب في وجدانها بأنّها أذنبتْ في حق الوطن!؟ باحثةً عن فكرة التطهير والخلاص قالت في نفسها: ((هل التقطتُ منه عدوى الخيانة والإجرام؟ أم أنَّ ما حدث هو امتحانٌ لقدرتي على التعامل مع جميع الناس في حيادٍ تام؟))..ومَنْ يستطيع التعامل مع البشر في حيادٍ تام؟ جميع البشر بكلِّ ثقافاتهم وأديانهم المتعددة؟ هل يكمنُ الحلُّ في توازنٍ عقلاني!؟ وهل المسألة مرتبطةٌ بالعقل وما نكتسبه مِنْ المعارف وآداب السلوك؟ هل هي مرهونةٌ إلى تنظيمٍ اجتماعيٍ محدد، أم أنّها بالدرجة الأولى نفسية، وتحتاجُ إلى مناهجَ جديدةٍ تقود الفرد في طريق الخلاص مِنْ الميراث البشري المتراكم عبر العصور!؟

شارلوت وليامز كانت تظنُّ بأنها حققت الاتساق مع زوجها محجوب السر، على مستويات الفكر والجسد. وقالت في نفسها: ((والآن بعدما ثبتَ زيفُ ادعاءاته، وضلوعه في جريمة تهريب المهاجرين، هل كان الاتساق بيننا حقيقةً أم وهماً!؟ وهل تعني الذروة الجنسية اتساقاً بمعنى ما؟ إنَّ ما حدث بيننا هو خداعٌ بحت، لقد أتقن دوره بمهارة، ولكن هل خدعتُ نفسي!؟ طفلتنا البريئة هي الحقيقة الوحيدة بيننا، ولكنها قد تكون الحقيقة الأهم!!))..

شارلوت وليامز وقفت لتدلي بشهادتها وبصرها يزاور بعيداً. وحين التقت عيونهما ومحجوب السر قابعٌ في قفص الاتهام، ارتعشتْ.. ومضتْ بخيالها تلك اللحظة النازفة عند ذروة اللذة، وهي على صدره، ينبض بوجدانها الوجد والاشتعال. على منصة الشهود أحكمتْ وضع نظارتها الطبية، رشقتْ الحضور بنظرةٍ عابرة، ثمَّ انهمكتْ في تلاوة شهادتها:

السيدات والسادة أقف أمامكم اليوم للإدلاء بشهادتي ضد المتهم الماثل أمامكم.. صمتتْ كأنّما لتستجمع خيوط المعاني الهاربة ثمَّ قالت: محجوب السر زوجي وأب لطفلة في عامها السابع. للتاريخ وللإنسانية أقول لكم صادقة، كانت حياتنا الزوجية مستقرة، لكنه أخفى مآربه بمهارةٍ فائقة. وأخيراً اعترف لي بأنّه يقود شبكةً دوليةً لتهريب المهاجرين مِنْ جميع أنحاء العالم إلى أوروبا. وأنا بحكم عملي في مجال حقوق المهاجرين، أدافع عن هذا

المتهم بقول الحقيقة.. لأننا وبحكم ريادتنا للمجتمع الإنساني يجب علينا العمل لصالح جميع البشر وبلا استثناء..

رُفعتْ الجلسة لاستراحةٍ قصيرة، ثمَّ عاود ممثل الاتهام استجواب الفتاة الشقراء، التي ظلَّت لسنواتٍ تدير أعمال الشبكة على الإنترنت. وُلدتْ في إستكهولم، ودرستْ هندسة الكمبيوتر، عملتْ في الشركات متعددة الجنسيات، وتنقَّلت بين عددٍ مِنْ البلدان الأوربية. كانت ومنذ دراستها في الجامعة تتابع الدراسات المهتمة بالتوازن المختل بين الشمال والجنوب. معظم الدراسات كانت تشير إلى أنَّ ازدياد الهوة بين الشمال الغني والجنوب الفقير، يرفع معدلات الهجرة بوتائر متصاعدة. ولوقف الزحف الكاسح لابد مِنْ عودة الرساميل الدولية إلى الجنوب. وقالت في نفسها: ((إنَّ الرساميل تنتج الفقر، وتراكم رأس المال)).. وحين بدأت العمل مع شبكة الهجرة المجيدة، كانت تبحث عن دورٍ ما لخلاص بؤساء العالم. بعد تجاربٍ متعددة نالتْ ثقة بعض أعضاء الشبكة، ثمَّ تدرجت في العمل بحكم معرفتها التقنية حتى صارتْ تدير أهم أعمال الشبكة على الإنترنت. في قاعة المحكمة قالت لهم: كنتُ أعرف إنَّ الرساميل المتمركزة هي سبب البلاء، ولن يعترف العالم بحق الفقراء إلا إذا اجتاحوا المراكز المتحضرة، وأغرقوها بأعدادٍ كبيرة. عندها سيدرك الجميع أنَّ البشرية تبحر على مركبٍ واحد، فإما نجاة الجميع أو هلاكهم..

عندما رفعت الجلسة تذكَّر محجوب السر تجربته الجنسية الأولى مع الغجرية السمراء، وقال في نفسه: ((هل كانت لذةٌ عابرة؟ إنها ما تزال تسري في أخاديد النفس. وتلك الرعشة التي تنسرب بين مسام الجسد، هل كانت نشوةٌ عابرة!؟))..

في الجلسة التالية وقف ممثل الاتهام يتلو أقواله بينما الفتاة الآسيوية تحدِّق في الحضور باحثةً عن وجهٍ صديق. غادرت بلادها وعمرها خمسة عشر عاماً. توفى والدهم الذي كان يعمل في مصنعٍ للأسمدة، وسرعان ما نهشت الأيام والشهور التعويض الذي نالوه، ثمَّ عصفتْ بهم الفاقة والعوز المميت. باعتْ الأم كليتها!! كان وجهها شاحباً متسربلاً بالأسى بعد خروجها مِنْ المستشفى. نظرتْ إلى ابنها وبنتها وبعينيها انثالت الشفقة ثمَّ طفرت دمعتان. أمسك الصغير كف أمه وانتحب في صمت، بينما أخته الصبية تشهد الموقف، على خديها دموعٌ حارقة، وبصدرها نبضات الخوف والرجاء..

علمتْ الأم مِنْ بعض جاراتها بأنَّ امرأةً شابة باعتْ كليتها لتسدَّ رمق أبنائها. خافتْ الأم في البداية وطردت الفكرة مِنْ دماغها، والأيام تمضي طاحنة، والفاقة تعربد في كوخهم الصغير. وذات ليلٍ بعدما نام الصغير،

أجلستْ الأم ابنتها بجانبها وهمَّتْ بمصارحتها، لكنَّ التردد عصف بها.. مضتْ شهورٌ والأم ترفض الخوض في هذه المغامرة. للمرة الثانية أيقظتْ الأم ابنتها في جوف الليل. ظلَّت البنت تسمع نشيج أمها حائرةً ولم تلبث أنْ داهمها الخوف والقلق. في الصباح قالت البنت لأمها: لا يا أماه، سنجد طريقاً للخلاص.. ومرَّتْ شهورٌ أخرى ومرض الصغير بالأنيميا..

الفتاة الآسيوية سمعتْ بأخبار الهجرة مِنْ جارهم الفتى الصامت. قال لها إنَّها طريقٌ لخلاص جميع المحرومين. كانت صبيةٌ نحيلةً، ظنتْ في بداية الأمر أنَّه كلامٌ عابر، لكن الفتى ظلَّ يكرر حكايته ويروي بعض التفاصيل عن شبابٍ سبقوهم على طريق الهجرة، وهم يسهمون الآن في تكاليف الهجرات الجديدة. قال لها: لنتزوج ثمَّ نرحل. المطلوب منا أولاً نشر الفكرة على عددٍ مِنْ القرى والبلدات، وتجنيد فتيات وفتيان. وقال لها: بعض المهاجرين يدفع كل التكاليف، آخرون يدفعون نصف التكلفة، ونحن لا نملك شيئاً، فالواجب علينا العمل لمدة سنتين لصالح الشبكة، ثمَّ يأتي دورنا في الهجرة.. وقالت في نفسها: ((أمي وأخي الصغير كيف أتركهم يكابدون العوز؟ ولكني لا أفعل مِنْ أجلهم شيئاً هنا، لربما تفتح هجرتي طريقاً لخلاصنا جميعاً. أمي باعت إحدى كليتيها وهي الآن عاجزة عن العمل في البيوت لتكسب قليلاً مِنْ المال. وإذا قبلتْ أمي هجرتي فهل ستنجح المغامرة؟ جارنا الفتى قال لي مرةً إنَّ عدداً مِنْ المهاجرين غرقوا في عرض البحر، فهل ستكتب لنا النجاة؟)).. أمها قالت لها: إنَّها حياتك، أنْ ينجو أحدنا خيرٌ مِنْ أنْ نهلك جميعًا.

ظلَّت إيقاعات القطار الأولى ترنُّ بأذنيها طوال الرحلة، يراودها وجه أمها الملهوف وهي تحتضن صغيرها الذي يلوِّح مودعاً بكفيه الصغيرتين. تزوجتْ صديقها وسافرتْ معه. على صهوات الأماني كابدوا مشاق الارتحال، والتسللِ عبر الحواجز والحدود. تنقَّلوا بين المدن والبلدان، يستقبلهم أفرادٌ مِنْ الشبكة، يرتبون إقامتهم لربثما يواصلون الرحيل مِنْ جديد. كان زوجها يجيد اللغة الإنجليزية وهي تصغي بانتباه. ومنذ البداية أدركت بأنَّ هذه اللغة هي أهمَّ أسلحتهم في مشروعهم الكبير. وحين استجوبوها في قاعة المحكمة بعد سبع سنواتٍ مِنْ وصولها إلى الجزر البريطانية، قالت لهم بنبرات التحدي: كيف تحاكمون الضحايا!؟ لستُ نادمةً على ما فعلت.. في سبع سنواتٍ أتقنتْ اللغة الإنجليزية، وارتقتْ سلم العمل الدقيق في شبكة الهجرة. بجدها ومثابرتها وأفكارها الجريئة أصبحتْ مسؤولةً عن قطاعٍ يمتد مِنْ لندن إلى سومطرة.. وقالت لهم: أنا عضو في شبكة الهجرة المجيدة، استجابةً لنداء الضمير..

وضع ممثل الاتهام نظارته الطبية. قرأ بعض الوثائق ثمَّ حدج الفتاة الآسيوية بنظرةٍ فاحصة، مشيراً إلى محجوب السر الجالس بجوارها في

قفص الاتهام، ثمَّ قال: هل تعرفين هذا الرجل؟ ظلَّ محجوب السر يتابع دفاعها مشفقاً عليها، وسعيداً بشجاعتها ونبرات التحدي في صوتها. تبادلتْ معه نظرةً تنمُّ عن الامتنان والتقدير العميق ثمَّ قالت: بلى، إنَّه الزعيم..

داخل قفص الاتهام وقف محجوب السر يرتبُ أفكاره، ويحاول لملمة وجدانه المبعثر. اختلس نظرةً إلى الويل حجر السقا ثمَّ قال:

ظلَّ يراودني نداءٌ غامض، ثمَّ أدركتُ بأنني منذورٌ لمهمةٍ كبيرة. وقتها لم أعلمْ شيئاً عن طبيعة المهمة، ولا تساءلتُ حولها، لكني كنتُ على يقينٍ بأنَّها مهمةٌ مِنْ أجل الإنسانية. سأقول الحقيقة كاملةً، ومصيري الشخصي لن يعطل مسيرة البشرية نحو الانعتاق النهائي مِنْ ذل الفقر. الحق أقول لكم إنكم إنما تحاكمون أنفسكم وحضارتكم. أيُّ ضميرٍ وأيُّ أخلاقٍ يمكنها القبول بما يحدث في عالم اليوم!؟ إنَّ رأس المال والمركزية الغربية هما الرافعة التي تزيد وتائر الفقر كماً وكيفاً. الحق، الحق، أقول لكم، إنكم تحاكمون السراب!! إنَّ قلة الذكاء الفطري وحدها هي التي توهمكم بأنَّ قوةً ما، يمكنها أنْ تهزم الأغلبية الساحقة، وحتى نهاية المطاف.. نعم خططتُ ونفذتُ، وأسهمتُ بكلِّ طاقاتي في شبكة الهجرة المجيدة. صبرتُ لسنوات، سهرت الليالي ونداء الواجب يلاحقني. وإذا عاد الزمن إلى الوراء فلن أفعل غير ما فعلت. مَنْ منكم يملك ضميراً حياً ثمَّ يصمتُ عن البؤس الذي يطوِّق العالم!؟

صمت قليلاً حين سطعتْ بذاكرته نظرة الوعيد التي رشقته بها الفأرة الحزينة، ثمَّ قال:

على شاشات التلفزة ظهر المسؤول الأول عن منظمة الأغذية العالمية، وأعلن إنَّ ثمانية عشر ألفاً مِنْ أطفال العالم يموتون يومياً بسبب الجوع وسوء التغذية. ثمَّ أضاف المسؤول الأممي في نبرةٍ تبدو محايدة: (إنَّه عارُ البشرية في القرن الحادي والعشرين).. أنظروا أيها السادة كيف يتم تلفيق الوقائع!! أما أنا فأقول لكم إنَّه عارُ النظام الرأسمالي والحضارة الغربية. هل تساءلتم حول أصحاب الياقات الأنيقة، الذين يعقدون الصفقات بالمليارات لبيع السلاح إلى مناطق الجهل والتخلف، ليزيد سعير الحروب، وتتصاعد وتائر البؤس والشقاء..

أيها السادة إنَّ حضارتكم تقدمت في مجال الكشوف العلمية، والصناعات التقنية، وآلات القتل والدمار. وما تزالُ تنهبُ ثروات الفقراء!! فبأيِّ حقٍ تحاكمون الضحية حين تنهض لتطالب بحقها في نصب موازين العدل والمساواة. أيها السادة أعرف بأنَّكم ستعودون إلى زوجاتكم وأطفالكم تبتسمون في برود، زاعمين بأنَّكم أقمتم العدل دفاعاً عن رفاهية الشعوب!!

مِنْ حقكم أنْ تبتسموا وأنْ تداعبوا ظهور زوجاتكم، أما نحن فإن عملنا الدؤوب سيتواصل لإعداد المسرح للنزوح الكاسح الأخير.
أيها السادة إني أبشركم!
الطوفان قادمٌ لا محالة
الطوفان.

■■■

ينهض الجسد على وتر الرغبة والأشواق، يطلب الارتواء مِنْ ماء الحياة، بينما الروح أسيرة اللحظة العارمة، والعقل سادرٌ في سراديب الغواية. وأحياناً يقمع الجسد تحت سطوة القيم وسلطان الروح!! فأين الاتساق؟ هل الشهوة عمياء، لا تُدركُ القيم ولا تُدركُها المعاني؟ هل تعمل الشهوة في منطقة تحييد العقل، أم بالرغم عنه، أم في اتساقٍ معه؟ أليس العقل مصدر الرغبة ومأواها، أم أنَّها أهواء النفس الكامنة منذ سحيق الآماد!؟ وما النفس سوى ذاكرة الطين حين جفَّ ثم دندن بالحنين، والعقل برزخ الشهوة العارمة والاستواء على صراطٍ متين. وما الروح إلا مِنْ أمر ربِّ العالمين..

غادرت ألويل حجر السقا الخرطوم في طريقها إلى البلدة. على طريق المرور السريع راودتها الأفكار والذكريات: عندما زارت محجوب السر في السجن انتابها شعورٌ قوي بأنَّه ينفر مِنْ زيارتها. حدَّثها بنفسٍ طيب، بيد أنَّ وجدانه كان يعتمل بمشاعرٍ شتى. أخبرته بأنَّها ستسافر إلى الوطن وسوف تزور أمه في البلدة، فقال لها ونظراته ساهمةٌ في البعيد: قولي لها الحقيقة فمن حقها أنْ تعرف. وبينما السيارة منطلقةٌ في سرعةٍ كبيرة، وهي مسترخيةٌ على المقعد الخلفي، استأذن السائق لتشغيل جهاز التسجيل. وحين انبعثت أنغامٌ راقصةٌ قالت في نفسها: ((محجوب السر مذنبٌ أم ضحية!؟ هل حصد ما زرعه!؟ لقد تمنى دوماً العيش في بلادٍ راقية، فهل نَدِمَ!؟ كلامه في المحكمة يشير إلى عكس ذلك)).. وقبل أنْ تودعه في حجرة المقابلة في السجن قال لها: لقد فعلت الصواب. وكاد أنْ يقول لها: إنَّه طريقي.. التقتْ عيونهما لبرهةٍ، فقالت في نفسها: ((هل ما فعله يعتبر نضالاً مِنْ أجل بؤساء العالم، أم خيانةً لبلدٍ منحه فرصة العيش الكريم!؟))..

وصلتْ منزل ود العاقب فانحسر قليلاً القلق الذي لازمها طوال الرحلة. ألويل حجر السقا امرأةٌ في أوج الأنوثة والندى. طرقت الباب.. استقبلتها عاشة أم سُكْسُكْ بالترحاب الشديد وبدماغها تتطاير الأسئلة عن ابنها الغائب في البعيد. جلست ألويل تفكر، كيف تبدأ الحكاية؟ كانت طوال الرحلة قد رسمت عدة سيناريوهات لمصارحة الأم بما حدث لابنها، ولكنها الآن عاجزةٌ

عن الإفصاح مباشرةً. أدركتْ الأم شيئاً ما، انتابتها القشعريرة ثمَّ قالت: قولي يا بنيتي، قلبي حدَّثني كثيراً.. ماذا حدث لابني؟

استقبلت عاشة أم سُكْسُكْ أخبار ابنها في صمتٍ خاشع. خنقتها عبرةٌ مفاجئة واغرورقتْ بعينيها الدموع. وبعد صمتٍ حزين قالت أليل: محجوب السر سيعود بعد سبع سنوات.. وحينما أدركتْ فداحة الانتظار أضافت: يمكنك زيارته، أنا عائدةٌ بعد شهر، وسيساعدنا زوجي في إجراءات زيارتك لابنك في انجلترا. وكأنَّما قرأت أليل ما يدور بخاطر الأم فقالت: لا تحملي هماً.. سنعمل كلَّ ما يلزم. وبعد صمتٍ قلق أضافتْ: محجوب السر أخي وصديقي.

عاشة أم سُكْسُكْ عاشتْ أربعة أسابيع قبل سفرها في قلقٍ عاصف. على رحى التردد مضت الأيام.. هل تخبر جيرانها أم تسافر في صمت. هل تكذب عليهم؟ وماذا تقول!؟ بثينة ابنة ود العاقب خابرتها تلفونياً، وحين علمت ما حدث لابنها شجعتها وأرسلت لها دعماً مالياً كي تسافر لزيارته. قبل أيامٍ مِنْ سفرها أخبرت جارتها وصاحبتها بنيتها في السفر لزيارة ابنها، وقالت إنَّها ستعود بعد أسابيع..

عندما حطَّت الطائرة في مطار هيثرو، غادرت عاشة أم سُكْسُكْ الطائرة مضطربةً. داهمتها روائح مزعجة، وبدت لها ألوان الناس مدهشة. خليطٌ مِنْ البشر، نظامٌ ونظافة. وسط الانبهار والأسئلة المتلاحقة تابعت فتاةً ترتدي سروال الجينز وقميصاً أبيض. تضع حقيبتها الصغيرة وراء ظهرها وتسير بخطواتٍ رشيقة. عاشة أم سُكْسُكْ التفتت إلى سيقان الفتيات العارية الأنيقة.. الشعر الأشقر والخطوات الواثقة البسيطة. بحلقتْ في الشاشات الالكترونية وقالت في نفسها: ((بلادٌ عجيبة!!))... تبعتْ أليل صامتةً تحاول أنْ تبدو طبيعية. تأملتْ امرأةً جالسةً تقرأ في كتاب وقالت في نفسها: ((هل تزوج ابني امرأةً مثلها!؟))... ثمَّ استدركت: ولكنهم ظلموه!! قبل زواجه استشارها عبر الهاتف فقالت له: إنَّها حياتك، ولكن عُدْ إلينا مع زوجتك وأبنائك. وقالت في نفسها: ((ترى أين زوجته الآن؟ لا بدَّ إنَّها تقف إلى جانبه في محنته))... أليل قالت لها: ابنك كان يساعد المهاجرين مِنْ البلدان الأخرى، وهذا مخالفٌ للقانون، لذلك حكموا عليه بالسجن. صمتت عاشة أم سُكْسُكْ ونظرت إليها بإمعان فأدركتْ الأخرى مغزى النظرات فقالت: ليس باستطاعتنا مساعدته.

عاشة أم سُكْسُكْ في دوامة الأسى والظنون، يمور بصدرها الحنين. حين دلفت مع أليل إلى محطة كنق كروس في قلب لندن. اضطربت خطواتها وسط حركةٍ دؤوبة.. توقفت عن المسير حين شاهدت رجال الشرطة وكلابهم، أوقفوا شاباً أسود الشعر وفتشوا حقيبته. وحين انطلقت بها القاطرة

الجوفية قالت في نفسها: ((هل يقبع ابني في سجنه تحت الأرض! هؤلاء الناس برعوا في البناء)).. غادرت محطة المترو وراء ألويل. عبرت بجانبها امرأة تدفع ابنتها على عربة أطفال فقالت في نفسها: ((إنَّهم يحبون أطفالهم مثلنا)).. وحين قالت لها ألويل: هذا بلد النظام والقانون. ابتسمت بينما خيالها سابح في مراقي الاحتمال.

وفي الطريق إلى السجن حاولت ألويل أنْ تحدثها في مواضيع شتى، لكنها ظلت تغالب طعم المرارة بحلقها، وقالت في نفسها: ((هذه البلاد ظلمت ابني، أم أنَّه أخطأ في حقهم فنال عقابه!؟)).. همَّت بأنْ تسأل ألويل عن إمكانية أنْ يقضي ابنها عقوبة السجن في الوطن، لكنها واصلت قولها في نفسها: ((قد يكون السجن هنا أحسن، فما دامت بلادهم نظيفةً فلابدَّ أنَّ سجونهم أرحم.. ولكنهم غرباء!! وهل يرحم أبناء بلادي!؟))..

كان مبنى السجن رمادياً وغارقاً في الضباب. حين دلفتا إلى الداخل سارتا في ردهةٍ طويلة. كانت خطواتهما مبعثرة بين القلق، والاضطراب، والتمني. عاشة أم سُكْسُكْ وألويل حجر السقا سارتا على أنشوطة اللهفة والترقب. كانت حجرة الزوار تبدو بسيطة ومحايدة.. محجوب السر على مقعد الاستقبال مثخنٌ بالحنين. انفلت صوته مِنْ سحيقِ الانتظار حين صافح أمه. سألته عن صحته وعن الحياة وراء القضبان. تهدَّج صوتها واختلج وجدانها بنشوة الحضور، ثمَّ شبَّتْ بصدرها حرائق الأشواق وسعير الانتظار. أيّ حنينٍ عصف بإيقاع اللحظة، أيّ ارتحالٍ إلى أفق الذكريات.. على مرجل الأشجان صافحتْ ابنها مرةً ثانية.. ألويل حجر السقا على قوس الانتظار صافحتْ مَنْ توهَّمتْ يوماً ما، في صباها الباكر، إنَّه فارس الأحلام ورفيق الدرب. سرت بينهم هواجس الصمت. محجوب السر سدر إلى الماضي ينبش في سراديب الذاكرة عن رحيق الحنين.

ألويل حجر السقا الصبية الهيفاء، هل أحبَّها أم اشتهاها؟ وما الفرق!؟ وقال في نفسه: ((عندما كنتُ أسيراً في مجاهل الغابات، ظلَّتْ أطيافها تزورني وتمنحني قوة الاحتمال، وتشحذ روحي بالأمل. ومنذ انطلاقي مِنْ الأسر بدأت ذكرياتها تخبو شيئاً فشيئا، ولا أدري لماذا!؟ والآن وأنا في السجن مرةً أخرى، عادت أطيافها وذكرياتها، وتفتقتْ من جديد أشواقي الدفينة))..

وحين عصفت به الأيام والدروب، وتقلَّب في ديار الغربة على صهوات الارتحال، صادم قوماً تمنى في مطلع شبابه العيش معهم، وها هي المرأة التي أحبَّها أو توهَّم ذلك، ها هي أمامه الآن سامقة ندية. قال لها ذات مرةٍ عبر الهاتف: إنَّ الغول الرأسمالي ينهش جسد الفقراء، وعلينا أنْ نقاوم. وحين

وضع سماعة الهاتف، تفتقتْ رغبته الجامحة الجريحة، في جسدها الشاهق المثير!؟ لبرهةٍ عندما زارته في المرة الأولى خيَّل إليه إنَّها شخصٌ آخر لم يعرفه مِنْ قبل، ثمَّ لم يلبث أنْ أدرك ظلال الطفولة تطلُّ مِنْ عينيها. في تلك اللحظة هل كانت تختزن نظرات الشفقة أم الرثاء، أم التضامن العميق في تجليات الإنساني البسيط!؟ حينها قال في نفسه: ((زارتني بكلِّ طيبة قلبها. كان مِنْ الممكن أنْ تتجاهل أمري. أهو الوفاء أم الشفقة أم لعله الواجب؟ نعم اشتهيتها كيفما كانت، صبيةً هيفاء نحيلة الساقين، وامرأة ناضجةً تضجُّ بالشهوة والنداء.. هل خانتْ الذكريات؟ وهل أصابني القنوط؟ وما جدوى العناق والعشق والذكريات؟ وما جدوى الحياة!؟))..

وبينما محجوب السر سادرٌ في عتمة الذكريات، كانت عاشة أم سُكْسُكْ تغالب النشيج والدموع. تحاول الانفلات مِنْ اللحظة الرهيبة، بين ذكرياتٍ مريرةٍ ومستقبلٍ غامض. وقالت في نفسها: ((هل ساقتني الأقدار خطوةً أثر أخرى على دروب الشقاء والأحزان؟ وهل يكفي ما تبقى مِنْ العمر لانتظار الابن الوحيد، حتى ينفكَّ مِنْ محنة السجون والقيود؟ وهل ستعود إلى البلدة، أم تتنكب الدروب إلى موطنها القديم!؟)).. أفاقت مِنْ الهواجس وارتباك اللحظات على صوت ابنها يقول بصوتٍ حزين: أمي.. اجتاحت الكلمة وجدانها ثمَّ احتلت اللحظة وهوَّمت فوق المكان. استعادوا توازنهم ريثما تعصف بهم الأسئلة الحارقة. وقالت في نفسها: ((ها هو ابني يجلس أمامي حزيناً، فكيف أمْضَى أيامه السابقة؟ وكيف ستمضي سنوات السجن الطويلة!؟)).. وكأنَّما التقط الابن خواطر أمه وهمومها، تداعت بذاكرته الأيام والشهور التي قضاها حبيساً. لمع بدماغه بغتةً ذلك البريق الحائر بعيني شارلوت وليامز والقاضي ينطق بالحكم. كقطرةٍ ماءٍ تنقِّر دماغه بلا هوادةٍ وبلا انقطاع، تلوَّجتْ بخياله لحظات الحبس المريرة، في انتظار صوت المفتاح حين يدور ليظهر السجان ويعطيهم الأذن بالخروج إلى قاعة الطعام. ثمَّ الدقائق الطاحنة وصوت خطوات الحارس تبتعد ليتجدد الانتظار، ويتوهَّج بالصدر نداءٌ عنيد. سادرٌ في دياجير النفس، تنكأ الذكريات الحامضة مكامن الأسى، وتتواتر لحظاتٌ ماضية.. في ليالي الحبس المريرة كانت الأطياف تلمع في عتمة النفوس. يمتحن المواقف وغالباً ما يخسر الرهان، ويتمدد ليل الحبس المرير.. ألويل حجر السقا ظلَّت طيفاً متواتراً يزوره ليلاً أو آناء النهار. ضاجعها في الخيال مراتٍ ومرات!! لماذا توارت تجاربه الحية مع سارة أبراهام!؟ وظلَّ بإرادةٍ أو بدونها ينسج في الخيال ما كان احتمالاً.. هل هي الرغبة الكامنة في العقل الباطن؟ تمناها ومن ثمَّ اشتهاها فتنكب الدروب إليها.. نعم رآها بعين خياله تماماً كما تبدو أمامه الآن، رائعةً وشهية، بيد أنَّ ظلالاً مِنْ الأسى تكحِّل عينيها فتهرب بنظراتها إلى البعيد. ماذا لو أنَّه ضاجعها حقيقةً في أوج الصبا!؟ هل كانت أشواقه ستهمد قليلاً؟ أم أنَّها ربما استعرت أكثر!؟ وقال في نفسه: ((أيُّ مشاعرٍ تحملها الآن؟ الشفقة، أم الحب، أم مجرد مجاملةٍ

لصديقٍ قديم؟)).. هل تتبدد مع الأيام معاني الصداقة ويخبو لهيب الحب؟ هل أحبها أصلاً؟ وهل أحبته؟ مَنْ يدري!؟ لحظةٌ سادرةٌ في دياجير الحرمان.. كم هي طاعنةٌ في الأسى تلك اللحظات الفاصلة بين الشهوة والاحتمال. لبرهةٍ كأنما اعتصم الوقت عن المسير وهو غارقٌ في بحر التمني، ثمَّ ارتدَّ إلى اللحظة الراهنة، إلى حريقٍ يلتهم مفاصل التواصل بين الشهيق والشهود. ألويل حجر السقا منتصبةٌ أمامه كإلهٍ قديم. كشفقٍ حزين أطلت مِنْ عينيها نظرةٌ خجولة. ظلَّت تلك اللحظة تجوس بدماغه بحثاً عن استراحةٍ قصيرة. وكأنَّ ذلك الحادث القديم قد تكرر للتو.. في مطلع الشباب وعلى شاطئ البلدة، يوم مسَّ حلمتي نهديها فاجتاحتها رعشةٌ مباغته، كظمتْ غيظها وأرسلت نظراتها إلى أمواج النهر..

ألويل حجر السقا قالت في نفسها: ((كيف عاش حياته بعد افتراقنا؟ تحمَّل كثيراً مِنْ الشقاء والآلام.. كيف تختار الأقدار ضحاياها، مصادفةً أم قدراً محتوماً!؟ والآن وهو جالسٌ على مقعد الاستقبال ترى ما هي مشاعره الحقيقة تجاهي؟ لا بدَّ إنَّه ما زال يذكر تلك الأيام)).. في زيارتها الماضية قال لها وابتسامةٌ مريرةٌ جاثمةٌ على شفتيه: كيف حال الوطن؟ انحرفت بالحديث عن ظروف السجن وقالت بأنَّ السنوات ستمضي.. استمع إليها صامتاً ثمَّ سألها مرةً أخرى عن حال الوطن. لم تمكث إلا دقائق أخرى ثمَّ ودعته وعلى شفتيها ابتسامةٌ شاحبة. وها هي الآن أمامه مرةً أخرى ترفل في الجمال. نظرتْ إليه فأدرك أنَّها تريد الانصراف.. ألويل حجر السقا لملمت جراحات اللقاء، ودعته وكفها مخضبةٌ بالحزن والارتعاش..

كانت اللحظة قاسيةً والأحزان تغور في صدر الأم، تلمع ببارق الخلاص على أفق التمني.. عاشة أم سكْسكْ ذرفتْ دمعتين حارقتين في وداع ابنها وهو يغادر حجرة استقبال الزوار.

■■■

محجوب السر وراء الأسوار ناوشت خياله أطيافٌ غامضة. عاد بذاكرته إلى أيام الأسر المريرة في أدغال الوطن. وحين دندن بصدره نداء أمه القديم، كان قابعاً في سريره، يغالب السأم. ولم تمض أيام قليلة حتى تمرَّد على قوانين السجن، فأودعوه في الحبس الانفرادي. ومن بين الحصار والكبت، انطلق بأفكاره بينما وجدانه مطحونٌ بالأسى. بعين خياله أبصر طائراً يحلق فوق بحيراتٍ لا نهائية
شموساً غاربة
أرجواناً شاحباً

شجراً، وفؤوسا

شعر ببعض التوازن، هل كان وهماً!؟ وهل بدأت ملامح الطوفان!؟ من بؤرة الحرمان والآلام، انطلقت أطياف الأحلام: في الدجى تململ تحت جلده دبيب حركة النزوح. وعند انبلاج الصباح كانت الحشود تتدفق صوب الشمال. طوفانٌ جارفٌ من البشر، يغمر الحدود والسدود.. أهي الأحلام المكبوتة، أم أنها رؤيا البصيرة!؟

انتاشه الحنين فحلق هائماً فوق صحارى الأمل. ظعن إلى الطفولة الباكرة، محاولاً اختراق حجب الماضي، والنفاذ إلى الذاكرة القديمة، حيث مكامن الكبت الرهيبة، والميراث البشري المرعب. وكلما طرق نافذةً في سراديب الماضي السحيق، المركوز في سويداء النفوس، استشفَّ ملامح مستقبلٍ قادمٍ لا محالة. هكذا من جدلية الأعماق والآفاق انفلت وعيه إلى الاحتمال. ثم غاص عميقاً في أضغاث الأحلام، وتناثرت أمامه شظايا الأطياف:

كانت الجموع تزحف في ثقةٍ وعناد. رأى الجبال الراسيات تزحمها النفوس، يشدُّها حلمٌ قديم، وقدرٌ محتوم. موجةٌ أثر موجة، زحفٌ بشريٌ كاسح. الألوف، مئات الملايين يجتازون الحدود، والحواجز والرصاص. تطاردهم المروحيات، والكلاب المدربة، وتقنيات الرصد المتقدمة. موجٌ بشريٌ يعلو، وفي الثلوج القطبية ذابت الكتل الهائلة، الصامدة منذ مئات القرون. انهمرت الأمطار والعواصف والسيول. غرقت السواحل، وتمَّ إجلاء سكان المدن والبلدات.

على ضفاف نهر التايمز تنفس عميقاً ومياه الفيضانات تهدر قادمة ولا مناص. حاصرت السيول المجالس النيابية، والقصور الملكية. غمرت المياه الحدائق العامة، والميادين، أرصفة العشاق، والمتسولين.. حين اجتاحت المياه الشوارع وارتفعت إلى الطوابق، كان يتجول وحيداً على الأرصفة، يدوزن أفكاره القديمة. المياه الهادرة تعلو لتبتلع ملامح المدينة، وتاريخها، وإرثها الحضاري العريق. دندن بلحنٍ فاجع، بينما المياه المتلاطمة تغمر الطوابق، وبصمات الزمن، والتاريخ، والحكاية. وصل إلى مبنى الساعة العريقة، التي ظلت أجراسها ترنُّ بانتظام منذ عقود. وحينما صعد السلم ليرتقي إلى قمتها، كان صوت المياه يتدفق. طوقت المياه المبنى السامق، ثمَّ تسللت إلى الأعالي والتروس العملاقة تدور في انتظامٍ رتيب. يتأرجح بندول الساعة، ويتحرك مؤشر الثواني في إيقاع موزون. وحين غمرت المياه الصاعدة التروس، قرعت أجراس الساعة اثنتي عشرة مرة. أنصت للرنين، لصوتٍ قادمٍ من أعماقٍ مجهولة. أطلَّ من نافذةٍ بأعلى المبنى، فشهد المدينة تغرق، والمطر ينهمر، وصدى إيقاع الساعة يرنُّ في البعيد..

حين أفاق من أحلامه وكوابيسه، حاول الزوغان إلى سراديب الذاكرة، فاجتاحته موجات الخيال: أبصر طائراً يدور فوق بحيرةٍ شاسعة، ثمَّ يصعد إلى الأعالي في دوائر لولبية.. وحين استحكمت حوله أطواق العتمة، والحصار، زاغ إلى الأغوار، باحثاً عن وميضٍ في سويداء الفؤاد. ظلَّ يسمع رنين الساعة الشهيرة، سادراً في سديم الألحان، ثم دندن بأغنيةٍ حزينة..

قابعٌ في زنزانته تغلغل اللحن في أغوار النفس الخائرة، وتداعت الأشجان. ناحت عصافير الروح، ثمَّ هبط إلى قيعان السأم، حيث الهزيمة كامنة بين سراديب الاحتمال.

غيومٌ رمادية
مطرٌ ورياح

وحين اشتعلت البروق، تحركت جدران الزنزانة، وكادت أن تطبق على أنفاسه؛ هكذا خيِّل إليه.. ارتعش، ثم طار بأجنحة التمني إلى مدائن الأحلام:

لمحها تركض في غنجٍ محموم. ومن بؤرة الحرمان الحارق، انتصب القلب على قارعة التمني. دبَّتْ في أعضائه النشوة فانطلق في براري الشوق. أدركها علي قوس الحنين، تتدلى من أغصان الوجد، كثمرٍ حزين. عانقها وبكى.. شمَّ رائحتها، طوقته بدموعها ونشيجها، اختلج الجسدان على مرجل النشوة. عاشقان ينتحبان على حافة الأمل، والدمع هتون.. وحين تكوَّر بين ثدييها، مخر رئتيه عبير الأمومة فأرتج بصدره السؤال.

غارقاً في نشوة الارتباك، أبصرها تركض في سراب المدى، وتنوح. حيث لا شجرٌ يثمر، لا ظلٌّ في هجير الوقت، لا حلمٌ تبدد واستراح. سارة أبراهام صبية هيفاء تركض في دياجير المدى، يخفق صدرها كشراع، ويطاردها نزيف الذكريات..

انتظمت إيقاعات الهلاك، ثمَّ قُذِف به في بحر الظلمات.. ارتد إلى المخاض الأول، قُبيل أن تُولد الشموس من رحم الجمال. لبرهةٍ انتاشته سهام الظنون، ومطرقة الختام الماحقة كادت أنْ تنهال على رأسه. اقشعر بدنه ثم استكان. نبضات خافتة تمور بصدره، وتواتر نداءٌ بعيد. وكأنه وُلِدَ من جديد، على ضفاف نهر البلدة. ظلَّ يحدق في المروج الخضراء وشمس الأصيل سابحةً في سماءٍ صافية..

صبيةٌ ندية الخدين عَبَرَتْ أمامه، فداعبت صدره نفحةٌ من عبير الطفولة. وحين اشتهى أنْ يلثم شفتيها، التفتت إليه، ابتسمت ثم ولَّت راكضة،

تهفهف مريلتها المدرسية وتتطاير خصلات شعرها. وسمع صوتها يرنُّ في المدى: يا محجوب..

سارة أبراهام تركض أمامه صبيةً ندية. المروج الخضراء على الضفاف. الفراشات الزاهية تتبع الصبيَّة، وعلى شجيرةٍ يانعةٍ غرَّد عصفورٌ صغير. المروج الخضراء تتمدد إلى آفاق المحاولة. النهر يجري، وزهور البنفسج تطرز الضفاف. صبية الأحلام تركض، وهو يرنو إليها نازف الفؤاد بالهوى. وحين داعب صدره نسيمٌ عليل، حلَّق وراءها يشدو بلحنٍ قديم. همَّ بالقفز والركض لكن قدميه تسمرتا على حافة الضفاف. تردد صدى صوتها فوق سطح المياه: يا محجوب..

وحين اجتازت الصبيةُ غيوم الآفاق، أفاق من جدل الأطياف والتمني. وقال في نفسه: ((سارة أبراهام، أملٌ وهيام!!)).. قبل سنوات رفض دعوتها للبقاء بجوارها في الواقع، وعجز الآن عن اللحاق بها في الأحلام!!

هل كانت أوهام؟
أم نقشٌ في ذاكرة الأيام!؟
على قارعة التمني
ظل يهذي بكلمات الغرام
يطلب الغفران والسماح والوئام
ثم هوى من سديم الأحلام
إلى حافة الضياع
يرنو إلى أفق الهزيمة
متسربلاً بنزيف الاحتمال.

■■■

كلَّ عامٍ يحلَّ السمبر في البلدة قبل بداية الخريف. يبني أعشاشه، يبيض ويربي أفراخه حتى يكتمل ريشها مع نهاية الخريف، ثمَّ تعود الأسراب مع صغارها إلى موطنها الأول..

عاشة أم سُكْسُكْ عادت مِنْ لندن إلى البلدة كأنها شاخت لألف عام. اشتعل الحريق في مكامن الفؤاد. لمع البريق على أفقٍ تخضَّب بالنحيب. وسط عويل النفس، والتياع الفؤاد، سمعت صوت السمبر يحطُّ على أعشاشه منشداً زغاريد الإياب. قررت العودة وحيدةً إلى مسقط رأسها الذي

انبهمت دروبه، وتاهت ذكرياته وسط معمعة الآلام والشقاء. كان عقد السُكْسُكْ ما يزال على عنقها، خرزاتٌ بيضاء وسوداء فكَّتها ونظمتها مِنْ جديد بخيطٍ أحمرٍ متين، ثمَّ أعادت ربطه حول عنقها. تذكرتْ يوم وصولها إلى البلدة على ظهر لوري، حين هاجمتها وخزات الطلق، والآن تداهمها أمواج الأسى والارتباك. أكثر من ثلاثين عاماً في هذه البلدة. عركتها السنوات، وبعدما اشتد عودها وصقلتها التجارب، وأدركت شيئاً مِنْ حكمة الأيام، فقدت أو كادت أنْ تفقد صلابتها وشكيمتها، لتبدأ رحلة العودة إلى مسقط رأسها في خريف العمر، على أشلاء الذكريات، والأماني الخابية..

في المساء الأخير قبيل أنْ تغادر البلدة، أخبرتها جارتها مِنْ فوق الحائط الطيني الفاصل بينهما، بأنَّ ابنتها أنجبت مولوداً ذكراً. تمهَّلت إلى بيت الجيران، وجدت الأم مستلقيةً على ظهرها فوق فراشٍ وثير، في حجرةٍ أعيد طلاؤها وتأثيثها من جديد. كانت الأم جميلةً ونضيرة، يتراقص بعينيها بريق الأمومة، وبجانبها وليدها البكر يُنصتُ لنبضات المكان وطقوس الميلاد. عاشة أم سُكْسُكْ صافحت الأم مبتسمةً وتمنَّت لها حياةً سعيدةً مع المولود الجديد. قدموا لها الحلوى فتناولت قطعةً واحدةً ربطتها في طرف ثوبها ثمَّ غادرت بيت الجيران رغم دعوتهم الملحَّة لتبقى معهم قليلاً. وقفت على رصيف النهر، بصدرها خفقان، وخيالها يرتاد آفاق الآمال العصية.. ومن بين رموشها المسبلة بالدموع أبصرتْ طائراً عجوزاً يرفرف وهناً، عائداً إلى أوكاره، بعد غياب الشمس خلف الأفق المتسربل بالرماد.

عشرات الأعوام كادت أنْ تبدد بفؤادها ما تبقى مِنْ رحيق الصبر والانتظار. وسط لغط النسوة جلست على عنقريب قصير، سالت على خديها دموعٌ غزيرة، وبصدرها تولول الوساوس والظنون. وقالت في نفسها: ((هل سأدرك ديار أمي وأبي!؟ بلد الجبال والخريف، والجداول والعصافير الملوَّنة)).. كم مِنْ العبرات والمحن؟ كم مرةً أصابت الأطياف قلبها المنتوف على قارعة الملل والانتظار..

وحانت ساعة الرحيل. وسط العويل والدموع حملت الجارات حقيبتها وبدأت خطواتهن حين بلغن أوج النحيب. سافرت لأكثر مِنْ تسع ساعات. على طريق الإسفلت بدأت رحلتها، ثمَّ عبرت مِنْ النيل الأبيض إلى النيل الأزرق وواصلت رحلتها جنوباً. في اليوم التالي وضعتْ حقيبتها على ظهر لوري قديم وانتظرت لساعاتٍ حتى تحرَّك اللوري على طريقٍ مرصوفٍ بالحفر والحجارة. ظلَّ اللوري يتأرجح يميناً ويساراً بينما الركاب يتبادلون الأحاديث والحكايات. توغل اللوري وسط تلالٍ صخريةٍ صغيرة والأشجار تزداد كثافةً وخضرة. اللوري يحيد عن حفرةٍ في الطريق ليقع في أخرى. عند المساء وصلوا إلى محطةٍ

صغيرة. أمضتْ ليلتها في منزلٍ جوار المحطة.. كانت خواطرها نازفةً على أفقٍ حامض، التعب أنهك جسدها وروحها هائمةٌ تناجي الاحتمال.

قبل الشروق انطلقتْ سيراً على الأقدام. على الدرب قابلت أطفالاً يقودون أبقاراً، ونساءً يحملن المعاول، يكدحن في مزارع صغيرة. وقالت في نفسها: ((كم مِنْ السنوات عاش هؤلاء الناس في عزلةٍ طويلةٍ قبل أنْ تداهمهم الأيام والأحداث!؟)).. بعد ساعاتٍ وصلتْ إلى قريةٍ صغيرةٍ عند سفح جبالٍ دائرية. عبرت بجانبها فتياتٌ يانعات، احتشدن بالأنوثة والغواية والندى. تتمايل خطواتهن على درب المياه المنحدرة على الجداول. دروب حبيبات الرمل المغسولة بالخطوات والمطر. وقوافل السحب الرمادية تمخر سماء الخريف، تذرف ماء الحياة والخضرة النضيرة. سارت صامتةً وبصدرها نسقٌ فريد مِنْ الأماني والأشجان، وأطياف الحزن التي مخرت وجدانها لأربعين عاماً أو تزيد. وصلت إلى سوق القرية.. حوانيتٌ قليلةٌ متناثرة، وراكوبةٌ لبيع الخضار وأخرى لبيع اللحوم. صبايا يعرضن الرغيف على مناضد صغيرة. تحت ظل شجرة نيم وضعت حقيبتها وجلست لتستريح. كانت الشمس قد ارتفعت إلى الضحى. بين الظلال الندية أبصرت عصفوراً رمادي ولون بطنه أزرق نيلي. النساء القليلات يتبادلن الحديث وقوسها المكسور ينبش بصدرها رميم الذاكرة، حيث مكمن الحنين. لبرهةٍ خشع قلبها وظللتها السكينة ثمَّ فاجأها صوتٌ محتشدٌ بالذكريات، وحدها في مفازة النحيب تحلم بالثمر القديم!!

عاشة أم سُكْسُكْ على قارعة الحنين، تنتزع خطواتها مِنْ براثن القنوط، تتنكب دروب العودة إلى مهاد الطفولة. تولول مزامير الإنشاد ورنين النداءات بين الجوانح. سادرةٌ في البحث عن لحظةٍ ضاعت تحت ركام السنوات. أربعون عاماً أو تزيد منذ أنْ غادرت ديارها في الجبل.. تركت البيوت عند السفح، وصعدت على الدروب وسط الصخور. ارتقت على حبيبات الرمل المغسولة بالمطر، فهل مشت خطواتها على دروبها القديمة؟ سحاباتٌ عابرةٌ فوق الجبال الخضراء، فراشاتٌ منتشيةٌ بألوانها المتناسقة. رحيق الأزهار والشذى. ثمارٌ صفراء وحمراء. وقفت أمام شجرة تبلدي يابسة، لكن أحد أغصانها الصغيرة ما زال ينبض بالحياة. دندنت بصدرها أهازيج الصبا، وكأنَّها لمحت رفاق الطفولة بأجسادهم السوداء وعيونهم اللامعة. هذه الشجرة العتيقة عاشت وسط الصخور، وحين اجتاحتها العواصف والمنون اتكأت على ترابها، تواصل الحياة. أمام الشجرة اغرورقتْ بعينيها الدموع، احتشدت بشوقٍ دفين، ثمَّ توهَّج بصدرها قبسٌ مِنْ مدارات الحنين..

هل أدركتْ موطنها!؟

رائحةٌ ما عابقةٌ في المكان. أنغامٌ كامنةٌ في الشجرِ والحجر، في الجذوع القديمة والصفق النضير. تنهّدت، ولولت بصدرها ومضاتٌ مِنْ الطفولة وخيالها يرمح في براري الاحتمال. أنصتت في لهفةٍ عارمةٍ إلى صهيل الآفاق، ثمَّ ارتدَّ إلى فؤادها نبض الأشواق. عصفت بها الحيرة فقالت في نفسها: ((حلمٌ أم يقظة!؟)).. هل اقتربت مِنْ ديارها وموطن أهلها، أم خيَّل إليها!؟ هل عاد شخصٌ آخر غير تلك الصبية الهيفاء، التي غادرت ديارها في الجبل قبل أربعين عاماً أو تزيد؟ وهل ضاعت الطفلة التي وُلِدَتْ في جوف العتمة وحملت اسم الظلام!؟

وسط الحيرة والارتباك وموجات الأشواق، تواترت بذاكرتها آخر حكايات البلدة، التي سمعتها قبيل رحيلها في رواياتٍ متعددة. عاشة أم سُكْسُكْ غادرت البلدة كآخر فرسان الرعيل القديم، وبرحيلها طُوِيَتْ، أو كادت، آخر صفحات البلدة القديمة، وانفتح المكان على أفقٍ جديد. اشتعلت بوجدانها طقوس البلدة وإيقاعاتها الحميمة. تفتش في سراديب الذاكرة، تنقّر وتراً مشدوداً بين الشهيق والزفير. تسربلت روحها بتلك اللحظة الفريدة، عندما دنت ساعة الرحيل، حين تقاطرت النسوة لوداعها وهي توزع نظراتها وأحاسيسها بين أرجاء المنزل الذي عاشت فيه لسنوات، وحانت لحظة الفراق. وقالت في نفسها: ((هاجر أغلب الأهالي وجاء آخرون، وتمددت الفرقان شمالاً وجنوباً، لكن البلدة ما تزال تروي حكاياتها))..

ظلَّت البلدة لثلاث ليالٍ وأربعة أيامٍ تروى تفاصيل الحكاية، وتعيد احتمالاتها. ترنمتْ الصبايا مع رياح الصَبَا وسط عبير الأمنيات. قالت إحداهن إنَّ الصبي العاشق شُوهِدَ هائماً على الضفاف، يناجي أطياف عشيقته، ويغني في حرقةٍ والتياع. طلائع الرعاة الذين انحدروا إلى النهر بعد أعوامٍ مِنْ الفيضان الكبير، قالوا إنَّهم شاهدوا مريم بدر الدين تعانق نخلة الشاطئ في اشتياقٍ أبدي. بين شفتيها النديتين توشوش حروفٌ شجية، ثمَّ تتراقص بين سعف النخلة الأخضر، بينما تداعب نسمات النهر خصلات شعرها المرسل. عند ذلك الأصيل قال شيخٌ واهن: إنَّها نجمة الصباح غاصتْ في الطين لترتشف مِنْ شبق الأعماق للشموس، ثمَّ تُولدُ بعد حينٍ مِنْ رحم النهر ندية فتية. وقال عمال الحفريات الأثرية إنَّهم وجدوها في مقبرةٍ قديمة، جاثيةً وسط زهور اللوتس الذهبية، وإنَّ البخور تصاعد عند فتح المغارة. وقيل إنَّها تظهر عندما يكتمل القمر بدراً، وتدوزن الضفاف نغمات الربابة الساحرة. وقيل إنَّها ظهرتْ مراراً على سطح النهر يفوح منها عطر الميلاد. وزعموا إنَّ أطيافها زارت بعض الصبايا في البلدة..

مع شروق الشمس كانت البلدة تروي حكاية الدجى التي اكتملت فصولها قبيل انبلاج الصباح:

عند السحر انحدروا مِنْ أعماق التاريخ، ومن مرايا الاحتمال. احتشدوا حول نخلة الشاطئ: ملكةً توجوها قبل ألف عام، جاءتْ مكللةً بالنصر، تحمل صولجان البطولة. كهنةٌ مِنْ غابر الأزمان يحملون تعاويذهم مكتوبةً على أوراق البردي. صناعٌ مهرةٌ وأميراتٌ متوجاتٌ بالرقة والجمال. وعلى رمال الشاطئ تناثرت زهور اللوتس بينما الثعبان المقدس جاثمٌ قرب جذع النخلة. وشوشتْ السعفات حين انطلقت المزامير وبدأ الإنشاد. زغردت الفتيات السمراوات وسط هدير الطبول. اجتاحت الجموع حمى الرقص. كانت صدور الأميرات خافقةً بالأمل، وخدود الصبايا يانعةً بالنشوة. انتصب الفرسان كالرماح على صهوات الخيول. وميضٌ أخضرٌ شقّ السموات، ضوءٌ باهرٌ عظيم هيمن على الطقس والضفاف، ثمّ تجلّت العتمة والصمت.. سرى نسيمٌ لطيفٌ قبيل أنْ تدندن نغمات الربابة الساحرة في أعماق المياه، ولم تلبث أنْ صدحت الألحان فانتشت الضفاف. زغردت النجميات في السماء الصافية تطرّز العتمة الطاغية..

على الشاطئ جوار النخلة اصطفت الأمهات الأول. من وسطهن تقدمتْ مريم بدر الدين، تناثرت قطرات الماء مِنْ شعرها على خديها، وبعينيها اشتعل بريق الارتحال. خيّم الصمت والرجاء، تغلغلت اللهفة في النفوس واشتعل في الصدور حريق الترقب والانتظار. مريم بدر الدين امتشقتْ جسدها اللدن مشرئبةً إلى سماءٍ بعيدة..

توهّج بعينيها بريق الاحتمال
ورفرف نغمٌ حزين
ارتعشت أوتار صوتها
ثمّ انهمرت أناشيدُ الحنين..

■■■

باو، الروصيرص، الكوة (يوليو 2006 ـ أغسطس 2007)

عباس علي عبود
السودان - النيل الأبيض- الكوة
abbaskawa@yahoo.com
روائي وقاص. كتب الشعر والمسرحية.

مؤلفات:

طقوس الرحيل: (رواية) الخرطوم ديسمبر 2005
صهيل الفجر الغامض: (مجموعة قصصية) الحضارة للنشر-القاهرة أبريل 2008
طقوس الرحيل: (الطبعة الثانية) الحضارة للنشر-القاهرة أبريل 2009
مرافئ السراب: (رواية) تحت الطبع
قبسٌ من مدارات الحنين: (رواية) تحت الطبع.
شظايا الأحلام: ديوان شعر-مخطوط
الدعاش: مسرحية. مارس 1995
ما تيسر من أقوال الشهود: مسرحية. يونيو 2009

عـــود الـنـــــد
مجلة ثقافية شهرية.
الناشر: عدلي الهواري
www.oudnad.net
ISSN 1756-4212
editor@oudnad.net

كانون الثاني/يناير 2010